الفصل الأول

مجاهد جاي .. من كبكابية!

الإمام الصادق المهدي هو سليل الجهاد الكبير الذي أعلنه الإمام محمد المهدي بن عبد الله في السودان في القرن التاسع عشر، فأعلن المهدية ودعا لإحياء الكتاب والسنة المقبورين حتى يستقيما، وواجه الحكم التركي المصري في السودان وصرعه مدينة مدينة محرراً بلاده حتى دانت كلها في ٢٦ يناير ١٨٨٥م، وبعد وفاته الأسيفة في بضع أشهر حمل الراية خليفته عبد الله بن السيد محمد، خليفة الصديق، الذي اجتهد في تنزيل تعاليم صاحب الدعوة، وأقام الدولة وثبت أركانها وسط معارضة داخلية متفاقمة، ورياح عالمية معاكسة، وكان ذلك وقت التكالب الأوربي على أفريقيا اقتسمها الأوربيون قطعة قطعة منذ مؤتمر برلين (١٨٨٤-١٨٨٥م). وفي النهاية تصدى خليفة الصديق لجحافل الغزاة البريطانيين المصريين في كرري يوم الجمعة ٢ سبتمبر ١٨٩٨م، وانسحب بعد الهزيمة التي رفلت في ثوب النصر، وجماعة معه، نحو الجنوب الغربي وأقاموا بجبال النوبة يتربصون بالمحتلين عاماً وزيادة، ولما صارت صفوفهم إلى تفرق وإقامتهم إلى صعوبات متزايدة، كروا في النهاية نحو مقرن النيلين بعد أن حلل خليفة الصديق البيعة لمن يريد، فلاقاهم جيش ونجت باشا في أم دبيكرات في يوم الجمعة ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩م يوم التراجيديا الشهيرة، حيث استقبل خليفة المهدي ومن معه القبلة وفرش فروته (خمرة الصلاة) واستقبلوا جميعا سيل الرصاص في بسالة لا نظير لها، فما كان من ونجيت الغازي ورجاله إلا أن رفعوا قبعاتهم تحية للأبطال المسجاة جثامينهم.

خلفت المهدية على قصر فترتها كماً هائلاً من الأدبيات والمرويات والمنشورات، وخلفت روح حماسة دينية ووطنية هي التي لفت بمنشأ الصادق الصغير، وصنعت الوطنية السودانية الوليدة.

لقد كانت ذكرى رجالات المهدية الذين ينتمي لهم بالدم والانتماء حية من حوله وبعضهم كانوا لا يزالون أحياء.

جهاد جده الأكبر في تحرير السودان، وجهاد خليفته والأنصار في مواجهة الغزاة خلف أدباً غزيراً وفخراً بل وجرحاً غائراً في نفوس السودانيين عامة والأنصار خاصة، فتغنوا بأبطال كرري الذين نفقوا بعشرات الآلاف في ضحوة، قالبين الهزيمة الحسية إلى نصر معنوي. إنه الجرح الجميل، فكما قال الشاعر عاطف خيري (في جروح سمحة)، وقد كان جرح (قيدوم) المحارب المهدوي في كرري جميلاً كما في مسرحية الدكتور عبد الله علي إبراهيم (الجرح والغرنوق). جرحٌ تحوّل إلى وسام تقلده شعب السودان إلى أبد الآبدين.

قال شاعر الأنصار محجوب ود سمورة:

خطوا لينا تاريخ أبيضاً.. نفخر بيه لي طول الزمن!

جدوده من أبناء المهدي كانوا بين أبطال تلك المشاهد الخالدة. **محمد بن المهدي الأكبر**، والملقب بـ«الأحدب» لطول في قامته وحدبة- كان من أوائل شهداء كرري فنعت بـ«راجل الجبل» تستغيث به النسوة اللائي داخلت عقيدتهن الأوشاب، يندهن «اللحدب»، ولو بلغ أبوه المهدي ما يفعلن لأعادهن إلى الصواب! الموحد الذي ما خالطت عقيدته شائبة، ولكن تدين المجتمع السوداني المختلط تسرّب حتى لبعض أتباعه رغماً عما في منشوراته ومجالسه من توحيد خالص.

والصديق بن المهدي الشاب المتأهب للزواج استشهد مع خليفة المهدي والخليفة علي الحلو وغيرهما من قادة المهدية ورجالاتها في أم دبيكرات، وكانوا في مسيرهم نحو الشمال والشرق قادمين من جبال تقلي، يكرون كرة آيسة نحو أمدر بعد أن جاءتها (الماندیرا ومسخت الديرة) بقول مادح المهدية ود سعد. فكتبوا أسطر التاريخ من نور ونضار! قيل إن الصديق كان أبيض البشرة جميل الوجه وكان مضرجاً بدمائه في جبته المرقعة حينما جاء أحد الجنود الأتراك وهو يشق طريقه بين جثامين الشهداء فنظر إليه وقال: ماذا أتى بابن الترك جميل الهيئة هذا بين هؤلاء الدراويش؟ وكانت والدته، أمنا فاطمة بنت حسين الحجازي، حاضرة فأخرسته قائلة إن هذا ابن المهدي.

أما بقية أبناء المهدي فإما أسروا في رشيد بمصر في بيئة سيئة أصابتهم بالسل الرئوي وقضت عليهم واحدا واحدا: عبد الله والطاهر والطيب ونصر الدين؛ أو قتلوا رميا بالرصاص مع الخليفة شريف في الشكابة وألقيت جثامينهم في البحر لئلا يتخذوا مزاراً،

وكان هذا هو مصير الفاضل والبشرى من أبناء المهدي.

ولم ينج من هذه الخطة اللعينة لقطع دابر ذرية المهدي إلا علي الابن الأصغر للإمام المهدي الذي أفلت من سليات رشيد وحلفا، وعبد الرحمن الفتى الذي أصابه الرصاص في الشكابة ولكن قدر الله ألا يُقضى عليه.

حتى بنات المهدي عانت بعضهن من الأسر في رشيد مثل جدة الصادق لأمه السيدة أم سلمة، وعاش الجميع في ظروف من فقر مدقع ومذلة، ومنع الأنصار حتى من تلاوة الراتب ومن أي تجمع يجمعهم خوفاً من تسرب روح المهدية إليهم من جديد.

جده الإمام عبد الرحمن هو باني السودان الحديث الذي دعم التعليم بأقوى صورة بشقيه الأكاديمي والفني، ودعم الصحافة، وكان رائداً في الزراعة وفي الصناعة، وفي تشجيع تعليم النساء، وكان وراء الكد السياسي والكدح المحموم لنيل الاستقلال الثاني، وإن كان فضله قد غيّب إلا أن الغبار لا يزال عنه ينفض.

وأبوه هو أبو الديمقراطية والحريات في السودان حينما يأتي الناس لتفقد الأنساب.

وقد دوّن جده الإمام عبد الرحمن المهدي ما عاناه في جمع أسرة المهدي وإعالتها على صغر سنه، وكيف بدأت أعماله الزراعية ثم التجارية في دائرة المهدي وسط تشكك وتخوف البريطانيين والتضييق خاصة من سلاطين[1] باشا المفتش العام، والذي كان مسئولاً عن أسرى المهدية وأسرهم[2].

وفي النهاية أفلح الإمام عبد الرحمن في جمع الأسرة وكانت أسرة الإمام المهدي وخلفائه وعدد من الأمراء تقيم في بيوت بحي العباسية بأم درمان وقد خطط سلاطين لسكناهم هناك بالقرب من نقطة البوليس (الضبطية) لتسهل مراقبة وضبط تحركهم. كما كان هناك عدد من أفراد الأسرة وأقربائهم من الأشراف والأنصار يقيمون بحي ودنوباوي بأم درمان. فكان هذين التجمعين يشكلان بؤرتان للأسرة في العاصمة الوطنية.

قام الإمام عبد الرحمن بجمع أطراف أسرة المهدي بزيجات الجيل الثاني، فبعد عقد

(١) رودلف سلاطين (٧ يونيو ١٨٥٧ - ١٩٣٢) انظر/ ي التراجم في آخر الكتاب

(٢) جهاد في سبيل الاستقلال جمع وإعداد الصادق المهدي

وزيادة من الصهارات المنفتحة على كافة قبائل السودان وجهاته أثناء المهدية عمل الإمام عبد الرحمن على ربط كافة أفرع أسرة المهدي المشتملة على خلفائه وأخويه في أسرته التي جمعت أطراف أسرة الإمام المهدي.

في هذا الوسط المترع بذكرى المهدية ورجالاتها ونسائها، والمحاط بالشكوك الرسمية من الاحتلال وحكومته، والفقر، ولد الصادق المهدي.

المجاهد القادم من كبكابية

لف مولد السيد الصادق بمبشرات كثيرة، منها أن عمه وابن خالته يحي وكان صغيراً في نحو أربع سنوات من العمر كان يردد باستمرار «مجاهد جاي من كبكابية»، وكبكابية هذه منطقة في دارفور بغرب السودان، وتوقعت الأسرة أن حديثه ذلك بشرى بمقدم أحد المواليد فقد كانت عديدات من نساء الأسرة على وشك الوضوع، وكانت كلما ولدت واحدة منهن سألوه هل حضر مجاهد ويقول لا، إلا حينما وضعت خالته رحمة بكرها الصادق فقال إنه قد جاء.

وكذلك روى جده الإمام عبد الرحمن المهدي إنه كان بأبا وعلم بخبر ولادته قبل أن يصله التلغراف، وكان المصحف بيديه حين جاءت قمرية وهبطت بين يديه وفجأة ألقي في روعه أن حليلة ابنه الصديق رحمة قد ولدت وكان يتوقع مخاضها في أية لحظة، فقال لمن حوله كأن رحمة قد ولدت. وبعدها بقليل وصله التلغراف بصحة الخبر، وقال الإمام عبد الرحمن إنه حينما علم بالنبأ كان يتلو القرآن من سورة إبراهيم، فهمّ أن يسميه إبراهيم ولكن عنّ له أن يغير رأيه وأن يهديه اسمه الآخر ألا وهو الصادق فسماه إياه.

وكان الإمام عبد الرحمن مهيأ لولادته قبل أن تكون، وقد خاطب السيدة رحمة بخطاب حول ذلك نصه: (السيدة العزيزة رحمة، بعد السلام، أرجو أن لا يحصل لك وضع قبل حضوري وقد سألت الله ذلك وأرجو أن يجيب دعاي، وإذا أراد الله لك وجع صحيح للولادة أثناء غيابي أخبروني بالتلغراف. أمرت لك بنصف ماهية وسأحضر معي السمن والعسل والقمح، كتبت لسكينة وأمرت محمد بالبوهية والنظافة لمنزلك، سلامي للجميع ولك تحياتي).

وقد صغت هذه المرويات التي سمعتها صغيرة في كلمات لحنت وغنتها الحبيبة فيحاء محمد علي في الاحتفالية التي نظمناها بعيده السبعيني في ٢٠٠٥م، منها:

يا قمرية طيري فوقي لي أبا

لي جناحك ديري واحملي النبا

ركي عِنْ سيدي قولي ليه جا

كلّميه عيدي قولي ليه جا

إن قالوا نور عبا

أو قالوا خير رِبا

كاشف ضلام سجا

والتبعو من نجا

من كبكبية جا.. مجاهداً رجا

في العباسية جا.. سليم قلب حجا

وتقول النسوة الحاضرات الولادة إن ولادته كانت غير معتادة إذ لم يخرج برأسه بل بقدميه أولاً. وكان ذلك في مساء الأربعاء ليلة الخميس الموافق الخامس والعشرين من شهر ديسمبر ١٩٣٥م وكان ذلك اليوم الأول من عيد الفطر شوال ١٣٥٤هـ، فاستبشرت والدته لأن مولد بكرها جمع بين عيد المسلمين وعيد النصارى الذين يحتفلون بعيد ميلاد السيد المسيح في الخامس والعشرين من ديسمبر من كل عام. ومولد المسيح مناسبة للتحية حتى لدى المسلمين ففي القرآن الكريم على لسان المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (١). وكان من دواعي البشرى لها أيضا أن مولده وافق المولد الهجري لجده الإمام عبد الرحمن والذي ولد في غرة شوال سنة ١٣٠٢هـ.

ولد الصادق بالعباسية «حي الأمراء» في بيوت آل المهدي هناك التي اقتطعها لهم المستعمر ليسكنوا فيها ويكونوا قريبين لتسهل مراقبة حركتهم كما ذكرنا. وكانت خالته سكينة زوج جده الإمام عبد الرحمن نفساء وقد ولدت ابنها أحمد في منزل السيدة أم سلمة ابنة الإمام المهدي جدة الصادق لأمه السيدة رحمة، وخوفاً من (العين) لم تشأ أم سلمة أن

(١) سورة مريم الآية رقم ٣٣

يكون بالدار ذاتها الأختين الوالدتين فتمت الولادة في غرفة ببيت أختها مريم ابنة الإمام المهدي ووالدة السيد إسحق الخليفة شريف، وكان مجاوراً لبيت السيدة أم سلمة بالعباسية.

المد الأمومي

الثقافة العربية في تبدياتها الجاهلية بالغة الذكورية. ومع أن الإسلام كان صيحة تحررية للنساء وأعاد اعتبار إنسانيتهن، فإن الفقه مضى كل عهد يتدنى عن مثال الدين النقي، متشرباً بالثقافات الجاهلية العربية والفارسية بل حتى اليونانية. وفي النهاية رسمت الثقافة العربية التقليدية صورة للمرأة كأنها مجرد وعاء لحمل نسل الذكور وحسب، وهذا في بعض أمثالنا مثل (المرة ماعون). وحينما تُبحث المؤثرات على الفتى تقتصر على تتبع آبائه وإهمال (الماعون). ولكننا بعد التأكيد على ما غرفه السيد الصادق من آبائه الصديق وعبد الرحمن، ومجالسهما، ومجتمع الذكور من حولهما من أصدقاء وأعوان، فإننا نريد أن نلقي الضوء على جانب مغيّب وهو دور أمهات الصادق في تكوينه.

الثقافة السودانية في طبعها أمومية وللنساء فيها مكانة كبيرة، وكلما رجعنا في التاريخ وجدنا أثر ذلك في السودان، بل في كل حوض البحر الأحمر، روى الدكتور جعفر ميرغني ما يؤكد مكانة النساء لدى السودانيين القدامى وكيف كان الملوك السودانيون على عهد مروي وممالك النوبة يفتخرون بأمهاتهم، وكانت النساء يملكن أحيانا كما الكنداكات. بل قال حتى الثقافة العربية القديمة كانت تعطي المرأة دوراً مميزاً ومكانة عالية، ولكن المجتمعات العربية الإسلامية تأثرت بقيم ومفاهيم وافدة من مجتمعات فارسية وهندية بل ويونانية تحط من شأن النساء. بل إن ثقافة احتقار النساء تسربت للثقافة العربية منذ الجاهلية وأنت تجد/ ين ذلك في ممارسات التعدد الجاهلية المهينة، ووأد البنات وغيرها، ولكن هذا لا يمنع من أن الثقافة العربية الأقدم كانت أفضل خاصة وأن نمو المدن وأشكال الحضارة عادة ما كانت تكون على حساب النساء. وقد ذهب دكتور عبد الله الطيب في دراسته للشعر العربي القديم مذاهب مشابهة في تتبع مكانة المرأة المتقدمة في الشعرالعربي القديم[1].

(١) أنظر : عبد الله الطيب المرشد: إلى فهم أشعار العرب وصناعتها الجزء الرابع

والمد الأمومي في المجتمع السوداني لا ينكر، وكنت دائماً ما أقول للذين يعتبرون المهدية شجرة تفرعت عبر الذكور فقط إن هذا خاطئ وخاصة فيما يتعلق بالحبيب الإمام الصادق، إذ أنني وقر بذهني وقد تربيت على يدي والدته وجدتي (رحمة) حيث كنت أكثر أحفادها قرباً منها، أنها وبيتها يشكلون نبعاً هاماً في تشكيل شخصية السيد الصادق، وكثير من الناس يهزأ من هذه الأطروحة باعتبار أن هذا تهويل مني بسبب محبتي إياها، ولكني أسوق هذه الحجة بكلماته هو، ولم أك استحضر حديثه هذا إذ كونت رأيي، ولكني وجدته ذكر هذا الكلام في تأبينه لخاله الحبيب إسحق محمد الخليفة شريف بتاريخ ١٦/ ٣/ ١٩٩٥م، قال: «*كانت أمي تدعوه اللحّاق، توريه، وكان لها توأماً، لا اتحاد الجينات، بل الأرواح أجناد:*

أجناد هي أرواحنا في المثال فما تآلف منها دعا إلى الاتصال

وكذلك السبب التربوي فكلاهما من مدرسة فاطمة بنت حسين». مؤكدا أن الناس يركزون على دور سلطان الآباء Patriarchs ويغفلون دور سلطان الأمهات Matriarchs وهو كبير، وذكر أن لبنت حسين ولد وبنتين[١] وإن علاقتها بالإمام المهدي كانت فكروية (فقد كانت حوارته) لذلك كان لديها التزام فكروي بالمهدية، وكان في بيتها إحساس بخصوصية روحية، كما قال عنهم الشاعر، ولعله ود التويم الصغير[٢] (عمر)، في عديلة خاله السيد شريف عبد الله:

المهدية كم في بيتكم أسرارها

وفي القصيدة أشار أيضا لدور الصديق ابن المهدي واصفاً العريس في العديلة:

يا ثمرة فؤاد صديق شهيد العركة

(١) ولدها هو الصديق الذي لم يصطحب أخوانه مع الخليفة شريف بعد كرري ولكنه ذهب مع خليفة المهدي فكان ابن المهدي الوحيد الذي استشهد في أم دبيكرات، وبنتاها هما أم سلمة أم السيدة رحمة، ومريم والدة السيد إسحق الخليفة شريف. فرحمة وإسحق أولاد خؤولة. والحبيب الإمام كان يعد المرحوم أبوي اسحق بين أخواله، مثلا لما طولب وهو مسجون بقائمة لعلاقاته المباشرة للزيارة من أبناء وأعمام وأخوال أورده بين أخواله المباشرين.

(٢) هو عمر ويقال له ود ود التويم، وهو ابن أمير المهدية والمادح المشهور محمد ود التويم، وكانت له مدائح كثيرة ويشارك بالعدايل في مناسبات زواج أحفاد المهدي.

ولهذا لم يكن مستغرباً أن جاء أكثف العطاء الفكروي المتعلق بالمهدية من حفيدين لبنت حسين. فإسحق كان المرجع الأول لكل باحث حول المهدية وروايتها وأحداثها، وكثيرون ينسبون له الفضل في التميز الذي ظهر في كتابات المرحوم عصمت زلفو[1] الذي نهل منه الكثير المفيد. والصادق هو الذي نظّر للمهدية في التيار الإسلامي العام وأوضح ما غمض من فكرويتها كما سوف نشرح لاحقا.

عاش الصادق الصغير في جو مكثف من الثقافة الإسلامية والمهدية، ووسط نساء عالمات ذوات فقه وحجا. فجدته السيدة فاطمة بنت حسين الحجازي زوج الإمام المهدي ووالدة جدته أم سلمة كانت عميقة الثقافة الإسلامية وكانت حوارة للإمام المهدي ملتزمة بخط المهدية العقدي حتى أنها لم تنضم لبقية أسرة المهدي في فتنة الأشراف إبان المهدية ووقفت مع صف العقيدة وليس عصبية النسب. ويروى أن الإمام المهدي قال لها: المهدية جاتني في بيتك.

وكانت يمة بت حسين تنكر العادات الضارة وقد أقسمت ألا تمس حفيدتها رحمة بالشلوخ. وتروي أمي رحمة، رحمها الله، كيف خدعتها المرأة المشلِّخة وساقتها بدون علم أمها ولا جدتها ثم رسمت لها الشلوخ على خدها وقالت لها انظريها في المرآة أليست جميلة؟ ولم تك الصغيرة تدرك مآلها بعد ذلك إذ كتفتها وفصدتها وقد حكت عن معاناتها بعد ذلك وكيف وضع في شقوق وجهها القطن والقطران أسابيع وكيف عانت، فما كانت تستطيع تناول المشروبات إلا عبر «قشة»، وقد غضبت جدتها لذلك وصامت لله بعد ذلك تكفيراً عن قسمها الذي خرقته المرأة الخرقاء.

وجدته أم سلمة ابنة المهدي كانت حافظة للقرآن مشهود لها بالصلاح ويزورها الناس ملتمسين من علمها وصلاحها وكانت كما يروى حفدتها دائماً تتلو كتاب الله أو تذاكر أحد كتب الفقه والدين.

وأمه السيدة رحمة عبد الله (١٩٠٩-١٩٨٥) كانت مشربة بكل ذلك مطلعة على

(١) المرحوم عصمت حسن زلفو له كتابات رائدة في المهدية تجمع بين المعرفة بالوثائق والكتب وبين الروايات الشفاهية بشكل عبقري وهي: كرري، وشيكان، والخليفة عبد الله والأخير كتاب أصغر من سابقيه وليس شهيرا مثلهما ولكنه قصة شيقة جدا لحياة خليفة المهدي قبل أن يتقلد الحكم.

التراث، وكانت لا تتحدث أو تروي للأطفال إلا قصص الأنبياء وقصص المهدية ومجاهداتها، وكانت إلى ذلك تحب الاستماع للمدائح النبوية والمهدوية، ولغناء الحقيبة وكان لها صالون أدبي يزار كما أنها أنشأت أول جمعية نسائية معنية بنهضة النساء هي جمعية ترقية المرأة ثم بعدها جمعية نهضة المرأة في أربعينات القرن العشرين.

وكانت علاقته بوالدته وما رأى من رجاحة عقلها وكرم خصالها، مدخلاً أساسياً لاحترامه للمرأة مما جعله مناصراً قوياً لها كما سوف تكشف سيرته اللاحقة.

بل إن أثر هؤلاء النساء في حياته امتد لأكثر من ذلك وقد كان أكثر من غيره من رجالات الأسرة محباً للاطلاع شغوفاً به، وقد قال يوماً: كيف لا تكون علاقتي بالكتب ممهدة وإني لا أذكر أني رأيت جدتي أم سلمة ولم يكن بيديها كتاب؟

الإمام عبد الرحمن وعلاقته بالصادق ووالديه

ذكر السيد الصادق أن علاقته بجده الإمام عبد الرحمن كانت أقوى من علاقته بأبيه، حتى توفي الجد فاقترب من أبيه قرباً شديداً.

فقد كانت علاقة الصادق قوية جداً منذ طفولته بجده الإمام عبد الرحمن المهدي الذي كان يتلمس فيه اختلافاً عن بقية جيله، وكان يحتفي به بشكل ملفت وقد روى الحبيب بدر إسحق من الأنصار ببيت الإمام عبد الرحمن وكان يطهو للإمام، إنه نصحه قائلاً إن اهتمامك بهذا الصبي بشكل زائد ربما جلب له حسد الآخرين[1].

كما روت والدتي السيدة سارا الفاضل رحمها الله أن السيد الصادق مرض مرضاً شديداً في طفولته وكانت أمه السيدة رحمة مشفقة جداً عليه ولكن كانت تطمينات الإمام لها ألا تحزن ولا تيأس فهذا الولد بإذن الله محفوظ.

وتكررت الإشارات من الإمام عبد الرحمن للمكانة التي يتوقعها للصادق وكان يكرر إنه الذي سوف (يسد فرقته)، وقد روى السيد الصادق أنه مرة وكان صبياً في نحو العاشرة من عمره لبس (جبة) أنصارية في لبسة مكتملة أعدتها له أمه، ولم يكن ذلك

(١) سجلت رواية المرحوم الحبيب بدر إسحق أثناء العمل في التوثيق المصاحب للاحتفال بالعيد المئوي للإمام عبد الرحمن عام ١٩٩٦م، والشريط بحوزة اللجنة العلمية التي قامت على الندوة العلمية والتوثيق.

معتاداً عليه بين الصبيان آنذاك، وذهبا سوياً لزيارة الإمام عبد الرحمن، وحالما وقعت عين الإمام عليه وحياه قال لأمي رحمة بإعجاب: مدهش- الصادق- يا رحمة! وأضاف «ما دة الولد البسد فرقتي»، ويروي السيد الصادق أن أمي رحمة بكت وقالت للإمام والعبرة تخنقها: إن شاء الله فرقتك في سفر طويل ما نشوفها يا سيدي، وراجعها الإمام قائلا: هذا ما ليس منه بد يا رحمة!

واستمر ذلك التبشير حتى آخر حياة الإمام عبد الرحمن إذ وبينما هو يحتضر أوصى السيدة رحمة لزوجته السيدة خديجة وقال لها بلغيها عني السلام والعفو وقولي لها إن الله قد أكرمك بالصديق، وبالصادق الذي سوف يسد فرقتي.

وكان الإمام عبد الرحمن يرسله لمقابلة الكبار من أصدقائه ومعارفه، وقد روى المرحوم جراهام توماس، وهو من الموظفين البريطانيين بحكومة الاحتلال الثنائي حينها، في كتابه «موت حلم» كيف تعرف عليه وقد أرسله لعيادته جده الإمام عبد الرحمن وتوقع له مستقبلا باهراً.

قال توماس: «لقد جاء يقابلني حين كان عمره ١٥ سنة بصفته يمثل جده وأباه »الذين سمعا أنك مريض وكلاهما الآن غائب عن الخرطوم». هكذا أخبرني بكل رصانة. وحتى في ذلك الوقت رأيت محدثي فتىً شديد البنية، ضخماً. وقد ولدت تلك الزيارة صداقة طويلة مستمرة بيننا. يومذاك تحدثنا معاً ساعتين طويلتين. كان الشاب ضد الإمبريالية بعنف، ومعادياً شديداً للبريطانيين أيضاً. وكانت شخصيته وثقافته متميزة بارزة في حديثه. فترك انطباعاً عميقاً في نفسي، حتى أنني كتبت إلى السير جيمس روبرتسون أقول «لن تحتاج إلى النظر أبعد من الصادق الصديق لأنه سيكون زعيم المستقبل وقائد هذه البلاد»[1].

قال السيد الصادق إنه حينما حدثه الإمام عبد الرحمن بضرورة عيادة المستر جراهام توماس اشترى «أباجورة» كبيرة وحملها معه كهدية، ثم لما ذهب له حدثه برؤاه حول البريطانيين وأنهم ينبغي أن يغادروا.

كانت علاقة الإمام عبد الرحمن بابنه السيد الصديق مميزة بشكل ملفت يلفها البر الشديد من الصديق لأبيه حتى صارت مضرب المثل في بر الابن بوالده، فكان ذراعه

(١) غراهام ف توماس السودان موت حلم دار الفرجاني ص ١٠٦

اليمنى في أعماله بدائرة المهدي، وكان يداً له قوية في العمل السياسي، وقد كان من مؤسسي حزب الأمة الذي يرعاه في ١٩٤٥م، ثم انتخب رئيساً للحزب في ١٩٤٩م، وكان خليفته في الكيان الديني فصار مربوطاً به في كل أعماله، وكان الإمام عبد الرحمن يظهر تقديره الشديد للصديق ولبره به.

وقد كتب السيد الصادق عن علاقته بالإمام عبد الرحمن وهو يروي عزمه على مخاطبته ليتخلى عن نياشين بريطانيا بعد اشتراكها في العدوان الثلاثي في مصر عام ١٩٥٦م، وقال: *(لقد كانت علاقتي بوالدي رسمية جداً على طول المدة حتى توفى جدي في عام ١٩٥٩ م فقويت علاقتي بوالدي قوة هائلة حتى عوضت وزالت رسمية الفترة الماضية. وكنت أتأمل هذه المسألة كثيراً حتى أدركت أسبابها: لقد كان والدي أبر الأبناء بوالده، ولكيلا يعكر ذلك البر بشيء ضحى بكل آرائه وخصوصياته. كان ذو رأي محدد في قضايا كثيرة فكتمه وكان ذو صداقات عديدة فتخلى عنها ليتخذ أصدقاء والده أصدقاءً له. كان همه كله في حياة والده أن يكون له الساعد الأيمن. وكان والده الإمام عبد الرحمن يحس بهذه التضحية ويلمس هذا البر الذي اعتقد أنه فاق كل قصص البر المعروفة وكان من طرف خفي- وفراسة المؤمن نفاذة- يعرف أنهما اقترنا في الحياة وربما اقترنا في الممات أيضاً. ودليلي على هذا أنني ذات يوم في عام ١٩٥٦ زرت جدي للتحية فأرسلني لأحضر إليه والدي ففعلت ودخلنا عليه، ثم كلفني جدي أن أدير مفتاح المروحة ففعلت فرفع يده بالدعاء قائلا: «إنشاء الله يا صديق تعيش حتى يخدمك حفدتك» ثم أجهش بالبكاء وكان في صوته نبرة من يحس أن عمر ولده لن يطول بعد عمره.. روحان طاهرتان اقترنتا في حياة تعاون على البر والتقوى واقترنتا في جوار الرفيق الأعلى)*[1].

ومن جانب آخر كانت علاقة الإمام عبد الرحمن كذلك مميزة بابنة أخته السيدة رحمة فهي ابنة اخته أم سلمة التي كانت تجله كثيراً وكانت لا تناديه إلا بـ«يا نعمتي»، وقد قدرت مكانته وتصديه لشئون الأسرة وقيادتها منذ كان صبياً لا يتعدى عمره خمسة عشر سنة، في حين أن تلك القيادة قوبلت حينها إما بفتور أو بمعارضة من أجزاء عريضة في الأسرة حتى أثبت الإمام عبد الرحمن مكانته لاحقاً بشكل لا يقبل المغالطة، وقد تتبع البروفسر حسن أحمد إبراهيم مثل تلك المغالطة وفكرة أن أجزاء أخرى في الأسرة هي

(١) ثلاث سنوات في خمسينيات القرن

الأولى منه بالقيادة ولم تكن أمه السيدة مقبولة ذات شأن في المهدية[1].

وكانت أسرة المهدي قد تفرقت بعد الاحتلال، فانهدّ بيت المهدي تقريباً، وانقسمت الولاءات، ولم يعد للأسرة كبير فتمت صهارات لأشخاص خارج الكيان وبشكل لم يكن معتاداً في المهدية وبدون مشورة السيد عبد الرحمن (الذي أطلق عليه لقب الإمام لاحقاً) ولا أخذ رأيه. بينما تعاملت معه أخته أم سلمة وأمها يمة (بت حسين) بتقدير كبير، فلا تبرمان أمراً بدون مشورته، وكان الإمام عبد الرحمن يقول: ناس بت حسين (أخدوني رخيص!) فقد كان الإمام عبد الرحمن فقيراً ولا أحد يعترف به داخل الأسرة أما في دواوين الحكومة فكان يرفض له حتى اسم المهدي فلا يدوّن إلا باسم: عبد الرحمن محمد أحمد.

ويروى أنه حينما ولد له الصديق وكان ثاني ابن للإمام عبد الرحمن من زوجته السيدة خديجة ابنه الخليفة شريف[2]، كانت السيدة أم سلمة حاضرة حينما جاء النبأ للإمام عبد الرحمن فاستأذنته في أن تسميه الصديق[3] تيمناً بشقيقها الصديق الذي استشهد في معركة أم دبيكرات مع خليفة المهدي، وأن يكون زوجاً لرحمة ابنتها، وكانت صغيرة حينها فهي تكبر ابن خالها الصديق بنحو عامين. وبهذا نشأت رحمة في كنف خالها تحيطه ووالدتها بحنان واحترام ومحبة ويبادلهما ذلك.

وقد وجدت بين أوراق جدتي السيدة رحمة خطابات كثيرة من خالها الإمام عبد الرحمن تظهر مدى المحبة والحميمية وكذلك الاحترام والتقدير لها ولأنجالها الذين كثرت إشارته لهم خاصة الصادق. وكثير من تلك الخطابات كانت تطميناً لها حول صحتهم فقد كانت السيدة رحمة شفوقة بأولادها ويبدو أنها كانت ترسل لخالها كل ما

(١) حسن أحمد إبراهيم الإمام عبد الرحمن المهدي

(٢) ابن الإمام عبد الرحمن الأكبر هو مرتضى الذي توفي في صباه وأمه السيدة دار النعيم عبد الباقي من الكواهلة.

(٣) حاول بعض الكتاب تفسير تسمية الإمام عبد الرحمن لابنه الصديق كدليل على علاقة خاصة تربطه بأخيه الشهيد، خاصة وهو لم يسم أبناءه بأسماء بقية أخوانه، والحقيقة هي أن العلاقة الخاصة كانت تربطه بأخويه الفاضل والبشرى لأن والدته مقبولة كانت تحبهما جداً وأشرفت على العناية بهما بعد وفاة والدتهما. وقد أصيب بطلق ناري يوم استشهادهما في الشكابة مع الخليفة شريف، بينما كان الصديق في القسم من الأسرة الذي ذهب مع خليفة المهدي واستشهد معه في أم دبيكرات. وسبب التسمية هو كما ذكرنا أن الصديق سمته عمته وليس أبوه.

أصابهم مكروه لعلها كانت تلتمس دعاءه لهم بالشفاء.

ويروي السيد الصادق كيف كانت في المرض تكلله بالرعاية والعناية والمحبة وصالح الدعوات، وكانت السيدة رحمة كثيرة السجع في الكلام، وتجعل لكل واحد من أبنائها أو أحفادها أرجوزة تناديه بها، فكانت تناديه بـ «صدوق..حالي الذوق» وكثير من أهل بيتها ما كانوا ينادونه إلا بـ«حالي الذوق»[1] وكذلك «صَدَق، سَبَق، أكل النبق!»، وفي المرض كانت تهدهده كذلك بشعرها، وقد روى مرة أن ما كانت تفعله للمرض كان يجعله مع عناه زمناً مشتهى! فكانت إن مرض تتعهده بالمكمدات تتحسس جسده المحموم بحنان وعطف وترجز له:

بريّة يا بابا

تبقى غابة.. والناس حطّابة

تبقى جبلاً ما بنطلع

تبقى شجراً ما بنقلع

وقد استمرت أمي رحمة في تقليد ذريتها قلادات المحبة وحسن الفأل، فكان لكل منا لديها سجعة، ومع أني أذكر بعض سجعات أخواني إلا أني نسيت بعضها فسأكتفي بذكر سجعتي وكنت ملازمتها الرسمية: رباح، شمس الصباح، الما شافا راح.. ومثل هذا الفأل لصغارها كانت توزعه لكل واحد وواحدة بدون فرز.

كانت تصنع للمرض شأواً وهيلمانة تجعل صاحبه يتمناه كما ذكرنا، كما إنها كانت محسنة أصيلة تؤكل الطير كل ظهيرة ويجتمع تحت شجرة الليمون التي تجعلها مكان مقيلها، وتؤكل المساكين فتخرج «بليلة» كرامة يومياً. ووجدت خطاباً لها في بعض أسفارها لعله لعمي فيصل أن يوصي أهل البيت ليحرصوا على إخراج الكرامة أشد الحرص حتى في غيابها. أما إذا مرض أياً من أولادها وحتى من أحفادها حينما كنا صغاراً فإنها تحضر أرغفة ثلاثة عشر وترصهم على جسد الصغير أو الصغيرة وهي تقرأ سورة الإخلاص، ثم ترفعهم عن جسده وترسلهم كرامة للمساكين.

(١) كانت حاجة السارة بت باب الله ملازمتها الوفية رحمها الله تنادينا بـ«بنات حالي الذوق»، ولا تشير لأمي وصال إلا بـ«أم سرور» وهذا هو الاسم الذي سمته لها أمها في رجزها.

لقد عشنا تلكم المراحم معها حتى ذهبت إلى ربها يصحبها الرضوان فجر رأس السنة الميلادية ١٩٨٦م، بل حتى بعد وفاتها حرصت حاجة السارة بت باب الله وكانت ملازمتها على إخراج الكرامة للمساكين كل جمعة حتى توفيت هي الأخرى رحمهما الله.

وكأمثلة فقط على خطابات الإمام عبد الرحمن لأمي رحمة أورد خطابه في٢٢ مارس سنة ١٩٣٦م وكان عمر الصادق الصغير حينها حوالي ثلاثة أشهر. كتب لها التالي: (العزيزة رحمة. ما أردت أن تضيع هذه الفرصة دون أن أكتب إليك عساك بخير وعافية، يظهر لم يصلك الرد على جوابك وقد عرفني محمد أنه أحضر الحكيم للحبيب الصادق فقال إنها حرارة لا ضرر منها وأعطاه الدواء اللازم مع التعليمات. سيكون حضوري إن شاء الله بقطر التلاتا عسى أن أجدك بصحة وعافية سلامي للحبيبة والدتك والأولاد ودمتي. عبد الرحمن المهدي).

وفي ١/ ٥/ ١٩٣٧م خاطبها بالتالي: (العزيزة رحمة، سلاماً كثيراً. تناولت كتابك وقد علمت منه أخبار صحتكم وحمى الصادق شفاه الله وعافاه وإن شاء الله أراه بعد يومين صحيحاً معافى قبليه نيابة عني. هنا الجميع بخير ووالدتك مشتاقة وتسلم عليك. سلامي ليحي وأخوانه ولك تحياتي وسلامي. سأقوم بقطر الاثنين وإن شاء الله تكونوا بخير. عبد الرحمن المهدي). أما يحي فهو ابنه وفي نفس الوقت هو ابن اختها السيدة سكينة.

وفي ١٤/ ١٢/ ١٩٤١م خاطبها خطاباً رقيقاً نصه: (المكرمة العزيزة رحمة. السلام عليك ورحمة الله، استلمت اليوم كتابك أثناء ما كنت أبحث مع بعض أفراد البيت في مستقبل وتربية الأولاد المباركين، وقد تباخت بهذه المناسبة أن قدمت لي أسماء أولادك الذين أرجو الله أن يكونوا صالحين مخلصين لوالديهم بارك الله لك يا رحمة وأنت أهلاً لكل ما أكرمك الله به من صفات روحية عالية وتقدير وإكرام مني، سلامي لوالدتك الحبيبة ووالدك وللأبناء المحروسين والسلام عليك ورحمة الله، إن شاء الله نراكم قريبا ممتعين بالصحة والعافية والهنا والسلام. والدك عبد الرحمن المهدي).

وفي ٤/ ٤/ ١٩٤٢م نجد منه الخطاب التالي: (العزيزة رحمة، سلاماً لك ولوالدتك وأنجالك، وأمامي كتابك عافا الله الأنجال وحفظهم من كل مكروه. لكم جميعاً أطيب الدعاء، الحسبة هنا في كل البلد ولكن لا خوف منها، الجميع بخير يقرونكم السلام، سأحضر لكم قريباً وأرجو أن أجدكم ممتعين بالصحة. عبد الرحمن المهدي).

كسار قلم مكميك

نشأ الصادق في بيت العباسية في حوش جدته السيدة أم سلمة والتي كانت متزوجة في المهدية بالسيد عثمان (الملقب بشيخ الدين) أكبر أبناء خليفة المهدي وقائد قوات الفرسان، وولدت منه خالداً، وبعد معركة أم دبيكرات في نوفمبر ١٨٩٩م تم أسرها وزوجها وعدد من أبناء أسرة المهدي وخلفائه في رشيد بمصر في ظروف سيئة أدت لإصابة جزء كبير منهم بالسل ووفاتهم، وكان من ضمن الذين توفوا هناك شيخ الدين، وتزوجت السيدة أم سلمة بعد ذلك بالشيخ عبدالله جادالله وكان من فرسان الملازمين وأبوه أمير الكواهلة في المهدية (جادالله بليلو) وهو زعيمهم بعده.

كان الشيخ عبدالله ناظر عموم الكواهلة وكان فارساً مقداماً اشتهر بوقفته الصلبة أمام المفتش الإنجليزي السير هارولد ألفريد ماكمايكل (١٨٨٢ - ١٩٦٩م) والذي كان مفتشا على كردفان وحكم حكماً جائراً ضد الكواهلة الذين ناصروا المهدية وواجهوا الاحتلال الثنائي، ومنحازاً لمنافسيهم الكبابيش الذين كانوا يوالون حكمه، فرفض عبدالله حكم المفتش وتناول القلم الذي كتبه به من مكتبه وكسره وقذف به في وجهه، فلقب بـ«كسار قلم مكميك».

جراء ذلك الفعل الجسور تمت عقوبة الشيخ عبد الله بطريقة شنيعة، حيث جرد من كل أمواله وأملاكه وطرد هو وكل عشيرته من ديار الكواهلة بأم بادر محل النظارة، ونفي إلى منطقة خلاء بالقرب من النيل الأبيض تسمى «الشقيق» حيث عاش وعشيرته بعيدين عن أهلهم وعزهم منفيين ومطاردين ومفقرين. كما تعرض الشيخ عبد الله لمحاولة اغتيال بالسم شاء الله أن ينجو منها. وفي النهاية انتقلت نظارة الكواهلة إلى بيت آخر من نفس فرع العبابدة، بطن بيت الشيخ عبد الله، وصار الكواهلة كما كانوا قبل المهدية، هم وسواهم من قبائل المنطقة، تبّعاً للكبابيش. وكانت المهدية أنهت هذا النظام واستبدلته بالمساواة بين القبائل وإسقاط أرستقراطية النوراب، الأسرة الحاكمة في الكبابيش، الشيء الذي جعلهم معارضين أصيلين للمهدية ومنسقين مع الجيش الكتنشري الغازي[1]. وأنت تجد/ ين العديد من الأدبيات في هذا الصدد، ومنها حث

(١) انظر/ ي في ذلك: عبد الله علي إبراهيم فرسان كنجرت: ديوان نوراب الكبابيش وعقالاتهم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، دار جامعة الخرطوم للنشر ١٩٩٩م، وكذلك لنفس الكاتب نحو مشروعية لمعارضة المهدية: المهدية والكبابيش. الدراسة المنشورة في دراسات في تاريخ المهدية، دار جامعة الخرطوم للنشر، ١٩٨٦م.

الشاعر الكباشي الساعور الكواهلة «أن يذغنوا لتبعية الكبابيش وأن يطرحوا إحن المهدية وأن يقتدوا بالبرارة والعوايدة الذين عادوا أدراجهم إلى الكبابيش بعد تنصل، قال:

ما تراعوا لي العوايدي ولي عيال برّار

إن جـــاهم غـــلت غير طلبة الكفار

إي انظروا للعوايدة والبرارة عادوا للكبابيش من جديد فما مسهم سوء إلا ما يجبيه الإنجليز من ضرائب»[1]. وقد رفض الشيخ عبد الله تلك المذلة، فكان ما كان، وأبدل بغيره في قيادة قومه بأم بادر.

وبعد نفيه للشقيق ومكوثه فيها زمناً، هاجر الشيخ عبد الله وطرف من أسرته إلى الجزيرة أبا حينما عمرها الإمام عبد الرحمن المهدي ودعا للالتحاق به هناك، فكان يقيم بأبا ويزور زوجته أم سلمة وبعض أبنائه وبناته المقيمين معها في أم درمان بين حين وآخر. فكان جانباً من إرث البطولة المحيط بالصادق متعلق بكسار قلم مكميك الذي تغنت به شاعرات الكواهلة وغيرهن، ومن أشهر ما قيل فيه التحفة التي غناها المرحوم المبدع بادي أحمد الطيب والتي مطلعها: عليك بجر النم.. يا دقر الحرايق أصبحت كاتم السَّم.. عشميك الأصم، وفيها:

شدولو وركب فوق أصـــهبا مربيت

الهوى والشرق شرفـــا يعـــاينن ليك

العاقـــر تقـــول بلـدي وبســـمي عليك

يا عيـد الضحيـــة البفتحـــولو البيت

رايو مكملـــو وكسّـــار قلـــم مكميـــك

أسرة الإمام الصديق

كان لوالده السيد الصديق عبد الرحمن المهدي (١١/ ٣/ ١٩١١-٢/ ١٠/ ١٩٦١) ثلاث زوجات: الأولى هي السيدة صفية (توفيت عام ١٩٤٧م) وهي ابنة عمه الأصغر

(١) إبراهيم، فرسان كنجرت سابق، ص ٩٩

السيد علي المهدي وصاحب كتاب «جهاد في سبيل الله» تزوجها في ١٩٣٣م، وقد أنجبت له صفي الدين (١٩٣٤-١٩٣٩م) وقد توفي في طفولته، وصفوة الكرام وأصفى وسميرة وعمر وعلي.

والثانية هي السيدة رحمة عبد الله جاد الله (١٩٠٩-٣١/ ١٢/ ١٩٨٥م) تزوجها عام ١٩٣٤م، وأنجبت الصادق وعصام الدين ووصال وفيصل وصلاح.

والثالثة هي السيدة ملكة حسين شريف (١١ فبراير ١٩٢٠م-٢١/ ٣/ ١٩٩٥م) أبوها هو الصحفي السوداني الأول ومن أوائل الخرجين السودانيين وأبرزهم في قيادة نادي الخريجين ونهضتهم بيد أنه توفي شاباً في ١٩٢٨م، تزوجها السيد الصديق عام ١٩٣٥م وأنجبت مصطفى (١٩٣٦-١٩٤٨م) وهو ند للصادق يصغره ببضعة أشهر فقط ولكنه توفي صبياً، ونور الشام (شامة) وصافية وصديقة وعبد الرحمن المتوكل.

ومع أن الصادق وأخوانه لم يكونوا في بيت واحد إلا أن والده كان واعياً بضرورة اختلاط أبنائه ببعضهم الآخر فكان يشجع زياراتهم وإقامة بعضهم لدى الآخر، وتروي عماتنا أنه نظم لهم في أواخر الأربعينيات رحلة لأركويت سكنوا كلهم مع أميهما (رحمة وملكة) وكانت صفية قد توفيت إلى رحمة مولاها، فكانوا يلعبون سوياً وتوطدت بينهم العلاقات أكثر. كما ساعد في ذلك أن زوجاته كن نساء عاقلات رزينات لا ينقدن وراء المعارك المعهودة بين «الضرات»، فنشأ الصادق وأخوانه من أبناء وبنات العلات في محبة وترابط وصداقة تجمع بينهم.

«ثيرمس» الروح المهدية

مثلما تلقى الصادق روح المهدية الجهادية في الروايات التي كانت ترويها أمه وجدته والأنصار من حوله، فإننا لا نغفل الدور الذي كانت تلعبه الآداب خاصة المدائح في حفظ روح المهدية. فقد كانت المدائح وجوها شيئاً معتاداً في مناسبات ومواسم عديدة وفي بعض أيام الأسبوع. فكان هناك رواة مدائح المهدية في طورها الأول يمدحون لو سعد وود أب شريعة وود التويم وغيرهم، وكان هنالك رواة مدائح الطور الثاني. إذ مدح الإمام عبد الرحمن جل شعراء الحقيبة وكان مداح الأنصار ينشدون مدائحهم، مدحه صالح عبد السيد أبو صلاح، وعبد الرحمن الريح، والحاج محمد أحمد سرور، وسيد عبد العزيز، وإبراهيم العبادي، وعمر محمد عمر البنا، وعبيد عبد

الرحمن[١]، وعبد الرحمن خالد، وابنه خالد عبد الرحمن (أبو الروس)[٢].

ووسط الأنصار كان هناك شعراء اشتهروا بمدائحهم في تلك الفترة مثل محمد أحمد حاج العاقب، وعمر ود محمد ود التويم، ومحجوب ود سمورة، وإبراهيم السيد. وكان لهؤلاء المداح الشعراء رواة لمدائحهم يحفظونها وينشروها في بقاع السودان أمثال المادح عبد الكريم الشيخ ومحمد أحمد أبو شيبة وهما من رواة مدائح (سيدنا) محمد أحمد ود حاج العاقب. وعبد الرازق حكومة، وآدم داسو من رواة مدائح محجوب ود سمورة وإبراهيم السيد ومحمد ود آدم، وغيرهم.

وقد درج الإمام عبد الرحمن الصادق أن يمضي عيد الفطر في الجزيرة أبا، وكان يؤم الجزيرة حشد ضخم من جميع جهات وأصقاع السودان، وصار هذا تقليداً يؤمه أهل الأدب والشعر والفقهاء وأهل البلاغة وأهل الفن، فكان الناس يأتون من (دنقلا وبلاد الشايقية ودارفور وكردفان وكسلا والقضارف وبعض جهات الشرق والجنوب)[٣]. وكان الصادق يحضر ذلك الموسم مثل غيره من صغار الأسرة بشغف كبير.

كذلك كانت تقام المدائح في عيد الأضحى بأم درمان وكل المواسم الكبيرة التي يحييها المادحون والشعراء في مواسم بعينها، شهر رجب «الرجبية»، المولد، عاشوراء. وكانت دار الإمام في أم درمان العباسية ودنوباوي والخرطوم عامرة بالمدائح والشعر خاصة أيام الجمع. وهنالك مناسبات اجتماعية أخرى كان الإمام يحضر أكثرها وكانت الوفود تأتي وفيها شعراء ومادحون[٤].

تحدث المرحوم قرشي محمد حسن عن ليالي المديح المهدوي فقال: (أما ليالي المديح العامرة فقد كانت تسهتل بمدائح الرسول «صلعم» ومن ثم مدائح المهدي وخلفاء المهدي وأصحابه الثوار ثم تختتم «الليلة» بمدحة نبوية ويشيلو الفاتحة).. (وما

(١) الطيب محمد الطيب الشعر والمدائح بين يدي الإمام عبد الرحمن في: يوسف فضل حسن- محمد إبراهيم أبو سليم و الطيب ميرغني شكاك (تحرير) الإمام عبد الرحمن المهدي: مداولات الندوة العلمية للاحتفال المئوي- مكتبة مدبولي -٢٠٠٢- ص ٣٤٠-٣٥٤

(٢) قدور، سابق ص ١١

(٣)الطيب محمد الطيب الشعر والمدائح بين يدي الإمام عبد الرحمن ص ٣٤١

(٤)نفسه ص ٣٤٣

زال طيف ذكريات الليالي الحبيبة يراودني وتلوح أمام عيني شخصيات منشدي مدائح المهدي القدامى الشيخ نصر الدين عثمان الضرير وزميله أحمد الشريف والشيخ حاج عثمان الضرير وزميله أحمد، أما منشدو قصائد الثائر عبد القادر ود حبوبة فقد كانوا يفدون إلى بقعة المهدي في أيام المواسم الدينية قادمين من الحلاوين وأذكر انهم كانوا يؤدون مدائحهم بالدفوف)[1].

كانت ليالي مدائح الأنصار تحتوي على النوع الجديد والذي كان يصاغ ليجعل روح الجهاد حية في النفوس وإن لم يصحبها توجيه معنوي عبر المناشير والخطابات كما كان في الطور الأول للمهدية. وقد روى الإمام الصادق كيف أن صحفياً مصرياً زار السودان واصطحب الإمام عبد الرحمن للجزيرة أبا وفي الطريق مروا بمنطقة الحلاوين، وحضر مع الإمام إحدى جلسات المديح هناك، فعلّق على ذلك للإمام عبد الرحمن قائلاً: لقد عرفت الآن كيف حافظت على روح الجهاد عند الناس بدون أدبيات تعبئة ظاهرة، فهذا المديح هو «الثيرموس» الذي حافظ على تلك الروح!

أيام العباسية

كانت حياة الصادق وأخوانه وهم صغار موزعة بين الاصطبل لولعهم بالخيل، والذهاب للخلوة، ثم بعد ذلك المدرسة. وكانت إقامته موزعة بين العباسية بأم درمان وبين الجزيرة أبا.

وكثيراً ما يحكي حول حياتهم في العباسية حيث كانوا يعيشون حياة عادية وليست كما يصوّر كثيرون من أنه ولد وبفمه ملعقة ذهب. فجده الإمام عبد الرحمن عانى من الجوع والحرمان بشكل رهيب، وحينما تم استقراره وبقية أسرة المهدي في أم درمان لم يكن الراتب الموقف لإعالتهم يكفي لسد الرمق، فقام بأعماله الزراعية على النحو الذي وصفه في مذكراته ولكنها كانت تدر دخلاً بالكاد يكفي لإعالة أسرته الكبيرة وأسر الأنصار معه ومقابلة العمل الدعوي والتنظيمي الذي يقومون به.

في هذه الحالة من سكنى في بيوت عادية والعيش بمظهر عادي نشأ الصادق، حيث يعلق على البيئة التي عاش فيها ودور جده الإمام عبد الرحمن فيقول: (*نحن ولدنا في هذه*

(١) قرشي قصائد سابق ص ١٠-١١

البيئة، ومع مولدنا في هذه البيئة. الإمام عبد الرحمن استطاع أن يجعل أسرتنا أسرة عادية من بين الأسر السودانية. ونشأت أنا كطفل في هذه البيئة الجديدة، ودون طبعاً أن ننقطع تماماً عن تراث التاريخ. وتراث التاريخ كان يغذينا بقصص البطولات والمواقف المختلفة في المهدية، ولكن كان واقعنا فيه تعايش مع الحضارة الوافدة).

الشاهد، فقد حدثت نقلة في حالة الأسرة المالية لاحقاً وبعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) حيث قفزت أسعار القطن الذي تزرعه مزارع الإمام عبد الرحمن المهدي إضافة لاستعانة الحكومة بالوقود من الأخشاب التي أمدتها أراضيه في الجزيرة أبا، وبدأ التحول في حياة الإمام عبد الرحمن وأسرته في النصف الثاني من أربعينات القرن العشرين، حيث اتخذ سرايا أم درمان والخرطوم، واشترى العربة الفارهة كأول سوداني يمتطي سيارة. وفي ١٩٥١م تحولت أسرة الصادق الصغيرة للسكنى في منزلهم الحالي بالملازمين.

كان الصادق في صباه الباكر يقضي وأخوانه سحابة نهارهم في الشارع يلعبون مع رفقاء الحي، ومنهم العم المرحوم صديق نمر، والعديد من أفراد أسرة المهدي وغيرهم ممن يجاورونهم بالحي، وكان من المعتاد للأطفال أن يتكسبوا من بيع أغراضهم لبعضهم الآخر، كالعنكوليب وهو نوع من قصب السكر رقيق الساق هشه، والكدندار وهو نوع من الحشرات الطائرة ملون بألوان زاهية، والجراد الضخم الذي كان يهبط على البلاد موسمياً فيصطاده الصغار ويشوونه ويأكلونه وربما تاجروا فيه فباعه بعضهم للآخرين، وغير ذلك. وكان الصادق كما روى في طفولته يتكسب من «طبلية» يبيع فيها مثل تلك الأغراض ليخرج منها مصروف جيبه. وكان وأنداده الصغار يفكرون في كيفية در دخل لهم في رابطة الأسرة فيخرجون تمثيليات يكون دخولها بتذاكر لذويهم ومعارف الأسرة.

ولا بد أن ذلك كان قبل عام ١٩٤٥م نهاية الحرب العالمية الثانية، إذ في حوالي ذلك التاريخ وما بعده حدثت الطفرة في وضع الأسرة الاقتصادي، وتغير فيها مستوى لبسهم ثم سكناهم.

وفي أيام الطفولة تلك روى أنه وبقية صبية الحي كانوا يشكلون ضبطاً للطريق، فلا يسمحون لسكران أن يمر، ولا لشاب وشابة غير متزوجين، وكافة أشكال الرذيلة

برأيهم، وروى عن حادثة تدخل فيها أولئك الصغار لاستنكار حدث في الحي ما كان يمكنهم المجاهرة بمعارضته، قال: *كانت تسكن إلى جوارنا مدّرسة جميلة وتزوجها رجل دميم، وكان هذا الحدث محل استنكار أهل الحي، لذلك اجتمع بعضهم وكتبوا على أوراق كثيرة: (إن الزهور فرائس الحشرات) ونثروا هذه الأوراق في منزل الزوجين الجديدين!!*

ألعاب الطفولة

ويتحدث الصادق عن الألعاب التي كانوا يلعبونها في ذلك الزمان فيقول:

(اللعب الذي نلعبه ليس فيه أنواع اللعب الحديثة التي تعرف الآن من لُعَب وغيره. وإنما كنا نلعب ألعاباً محلية، كلها محلية: حرامية وعساكر، ويسمى أيضا «كركعت»، « وشليل وينه». و«شليل وينه» هذه فيها فكرة أن فريقين يبحثون عن عظم في الليل- شليل هذا هو العظم- وعادة يكون بعد صلاة العشاء وبعد أن يكون هناك أشخاص يبحثون عن هذا العظم ومن يجد هذا العظم عليه أن يعود به إلى «الميس»، إلى مكان معين، والآخرون يريدون تجريده منه. المهم كل اللعب التي نلعبها: حرامية وعساكر وشليل، وشدت .. شدت هذه لعبة فيها كل طفل منا يقف على رجل واحدة ويجري برجل واحدة وينقسم إلى فريقين: العروس وفريق ضدها، والعروس هذه ولد ولكن يسمى العروس هذا الطفل يريد أن يصل إلى غاية معينة، فريقه يحميه ليصل والفريق الآخر يمنعه أن يصل وهذا الصراع أوهذا التنافس يقوم في الموضوع.

عندنا عدد كبير جداً من الألعاب الممتعة جداً، فنشأنا نحن في بيئة حقيقة فولكلورية، سودانية خالصة سواء في الخلوة والتي نتعلم فيها والخلوة التي تكتفي ذاتياً تماماً، والألعاب التي نلعبها في ظروفنا الأخرى.

هذه المرحلة الأولى من الطفولة وهي مرحلة عامة لأغلبية أطفال السودان خصوصاً في الحضر، في المدن هذه المرحلة تلتها مرحلة ثانية وهي دخولنا إلى التعليم الحديث.)

حينما كبر الصادق قليلاً صار يحجم عن الخوض في كل أنواع الألعاب، وإن كانت حياة اللعب لا تزال تميز أوقات فراغهم.

وقد روى اللواء أبو قرون عبد الله وقد كان يسكن جوار آل المهدي بالعباسية في

حوش الشيخ محمد البدوي جده لأمه، إنهم كانوا يلعبون مختلف الألعاب كشليل وشدت وسجك، وكان الصادق حينها في الثالثة عشرة[1] وقال إنه كان يشارك في العدو «السباق» وكان سبّاقاً، ولكنه كان يحجم عن المشاركة في لعبة «سجك» لأنه يكره أن يمتطي أحداً أو يمتطيه أحد، كما كان يحجم عن المشاركة في لعبة «ختمية وأنصار» وهما الكيانان الدينيان الكبريان في السودان والتنافس بينهما معروف. قال أبو قرون إن (أولاد السيادة) كما كانوا يسمون أبناء آل المهدي كانوا يكونون في فريق الأنصار، بينما كانوا هم في فريق الختمية مع إنهم لم يكونوا ختمية، وذكر أن الصادق كان ينأى بنفسه عن تلك اللعبة.

ووصف زي الصادق حينها واهتمامه بنظافته، كما روى عن حادثة وقعت له مع عباس عبد الرحمن بابكر الشفيع وكان يبيع «العنكوليب» و«الكدندار» لزملائه من الصبية، وبينما همّ الصادق بشراء عنكولية وطئت قدمه على «كدندارة» فزهقت روحها حالاً، (فثار عباس و«قبقب» الصادق قائلا: مش كان تكون ود المهدي كان بقيت سيدي الإمام المهدي «ظاتو» إلا تجيبها لي! ورغم كرفسة عباس لقميص الصادق لم يكف عن الابتسام والضحك، وأخرج من جيبه «شلن» إنجليزي وأعطاه لعباس الذي تركه قائلا: ووو.. الله إنت ود السيادة صحي!) وقال أبو قرون إن المبلغ الذي أعطاه لعباس كان يساوي ريعه لأسبوع كامل. ثم علق على تلك الحادثات قائلا: (كل ذلك كان يرشح الصبي الصادق ليكون زعيماً وقائداً أولاً لحرصه على زيه ونظافته، ثانياً عدم ميله إلى أن يركب ظهر أحد أو يركب ظهره أحد، ثالثاً، وقوفه على الحياد في الشجار الذي جرى بين الختمية والأنصار الصغار، رابعاً، طول باله وحلمه وكرمه مع عباس الفقير، ولعل الإمام الصادق لا يذكر تلك الفترة، وقد صدقت توقعاتنا، فكان الصادق طوال سني حكمه الرجل العفيف النظيف لبساً ويداً ولساناً وكذلك حبه للسلم والمهادنة والكرم وطول البال، وصحيح إن الأصله نخلة ما بيخلا)[2].

وقد عرف عن الصادق منذ طفولته اهتمامه بنظافة جسده وملبسه وبالطيب فله أنف حساس جداً، وهذه من خلال النبي صلى الله عليه وسلم إذ كان يحب الطيب وينفر من الروائح الكريهة، ولذا تجد الصادق كثير السواك والاستحمام، بل بلغ به الأمر أنه حينما

(١) هذا يعني حوالى سنة ١٩٤٩م

(٢) أبو قرون عبد الله ابو قرون سمات الزعامة تظهر في الصبا: الإمام الصادق المهدي نموذجا صحيفة صوت الأمة ٢٠١٠م

أهدي له حمار في طفولته، وكان بالنسبة إليه هدية قيمة جداً، حممه بالماء والصابون ولكن رائحة الحمار بدلاً عن أن تزكو بالاستحمام ساءت، فاستعان بقارورة عطر كبيرة كانت أمي رحمة تضعها في غرفتها، وكبّ العطر كله على جسد الحمار، وكان غضب أمي رحمة من ذلك مضرياً فالعطر كان هدية الإمام الصديق لها من سفرة لأوربا، وكان صب القارورة كلها على الحمار مما لم يمكنها احتماله!

على العموم، لقد شهدنا غضبات أمي رحمة لاحقاً، كانت إذا أرادت أن توبخ أحدنا إذا أخطأ، تقول له تعال، مد يدك، ثم ترفع كفها عالياً وقد أشهرت السبابة والوسطى وقبضت بقية الأصابع وهي تزم شفتيها كأنها سوف تصب سوط عذاب، وحينما تهوي بها على ذراع الواحد والواحدة منا إذا بها مجرد مس لطيف.. كان بعضنا يضحك ملء شدقيه من (عقوبات) أمي رحمة، وهناك من يذهب إليها مطالباً بتلك العقوبة (اللذيذة).. ولا أدري هل كانت هذه السعادة العقابية من نصيب (ولد الولد) أم كانت عقوبات السيد الصادق وأخوانه من نفس الشاكلة؟

في الخلوة

في أم درمان كان الصادق يذهب لخلوة الفكي أحمد العجب، حيث يتلقى أساسيات الفقه ويحفظ القرآن، ومن أصدقائه فيها الصادق أحمد العجب. وفي الجزيرة أبا كان يذهب للخلوة على يد الفكي علي السيوري.

ويصف الصادق الخلوة بقوله:

(إنها مؤسسة سودانية ذات معالم خاصة، فيها المعلّم الذي يعلم القرآن، وهو أشبه بمربٍ يجمع الأطفال ويشرف على حياتهم كلها. وأثناء هذا الإشراف يلقنهم القرآن دون معرفة معانيه ولكن يحفظهم إياه. والخلوة مؤسسة فيها كل معالم الاكتفاء الذاتي: اللوح الذي نكتب فيه نعمله نحن من الخشب، القلم الذي نكتب به نعمله نحن من البوص، الحبر الذي نكتب به نعمله نحن من السكن والصمغ والماء، الطعام الذي نأكله نطبخه. الخلوة مؤسسة محلية ذات اكتفاء ذاتي كامل. وأطفال ذلك الزمن كانوا ينشأون في تربية من هذا النوع تحت إشراف هذا المعلم القرآني)[1].

(١)تضاريس الذاكرة (٣): الصادق المهدي. من سلسلة تضاريس الذاكرة إصدار البيت العربي بمدريد من لقاء مع الصادق المهدي بمدريد في ١٨ مايو ٢٠٠٩م

وقد أقام الصادق جانبا من طفولته في الجزيرة أبا حيث ذهب للخلوة ثم للكتاب هناك، وكان يتنقل مع جده الإمام عبد الرحمن، كما توحي رسالة من الإمام عبد الرحمن المهدي لأمه السيدة رحمة في ٤/ ٧/ ١٩٤٢م يخبرها فيها إنه سوف يحضر من الجزيرة بعد ١٥ يوما ويقول لها: «سأحضر الصادق معي ويعود ثانياً معنا جميعاً كما طلب هو». وكان الصادق حينها دون السابعة من عمره.

في الأحفاد

بعد ذلك أدخل الصادق الصغير لمدرسة الأحفاد الابتدائية في أم درمان وكان يقف عليها الشيخ بابكر بدري بنفسه. ويؤلف للصغار الأناشيد التي يتغنون بها.

قال السيد الصادق ذاكراً تجربة التعليم الحديث في الأحفاد:

(التعليم الحديث بالنسبة لنا كان ظاهرة غربية، الإنجليز دخلوا وأقاموا مدارس ولكن المدارس التي دخلتها أنا في ذلك الوقت مدارس أسسها أشخاص غير حكوميين. دخلت مدرسة الأحفاد التي أسسها الشيخ بابكر بدري.

الشيخ بابكر بدري كان ضمن جيش المهدية المتوجه لتحرير مصر. وهذا الجيش الذي توجه لتحرير مصر طبعاً لم يصل لغايته لأن قد واجهه الجيش المصري بقيادة بريطانية وهزموهم في توشكي، في الحدود ما بين السودان ومصر. شيخ بابكر كان ضمن الجيش وأسر وبعد نهاية الفترة المصرية، هذا الرجل بعبقرية خاصة فكر في التعليم المدني الحديث، وأقام مدرسة سماها «الأحفاد» أو الحفدة، بمعنى أحفاد الرجال الذين جاهدوا مع المهدي، ولذلك سميت «الأحفاد»، فنحن بصفتنا هذه دخلنا فيها وفي هذه المدرسة بدأنا مشوارنا في التعرف على الحضارة الحديثة لأن التعليم فيها كان تعليماً حديثاً: القراءة والكتابة والحساب والعلوم الحديثة.. إلى آخره.

وكان هناك إلى جانب هذه المدارس الأهلية السودانية، مدارس كونها المبشرون المسيحيون، والإنجليز كانوا قد وصلوا إلى قاعدة: الجنوب يحصر ويحتكر للمبشرين، والشمال يمنع فيه التبشير خوفاً من المهدية لأنهم اعتبروا أن المهدية شحنت نفوس المسلمين في الشمال بروح الثورة، فإذا حصل أي نوع من محاولة التبشير المسيحي في الشمال سوف تستثير المهدية وهذا يؤدي إلى ثورة، وبالفعل حدثت عدد من الثورات، ولكن لكي لا يستفزوا هذه الروح قرروا ألا تبشير مسيحي في الشمال. ولعل هذه كانت

واحدة من أسباب المواجهة ما بين الشمال والجنوب لأن الجنوب احتكر للتبشير المسيحي حيث صار المثقفون الجنوبيون عرضة لهوية جديدة، هوية انجلوفونية مسيحية، بينما في الشمال منع التبشير ولكن سمح للمبشرين الذين كانوا يريدون العمل في الشمال بالقيام بمؤسسات تعليمية، ومؤسسات طبية دون تبشير ولذلك كانت هناك مدارس أهلية تسمى كمبوني، والمطران دانيال كمبوني هذا كان هو أهم القساوسة الكاثوليك الذين جاءوا إلى السودان وسميت المدارس هذه باسمه تخليداً لذكراه).

في الكمبوني بالخرطوم

يقول السيد الصادق: *(نحن بعد المرحلة الأولى في دراسة الكُتّاب في الأحفاد نقلنا للتعليم في مدرسة الكمبوني الوسطى بالخرطوم. مدرسة الكمبوني هذه كما قلت ليس فيها تبشير وإن كانت إدارتها لمبشرين كاثوليك، وهذا دليل على درجة التسامح التي وصلت لها أسرتنا، باعتبار أن الموقف الصارم ضد أي علاقة أجنبية وصل لدرجة أنه لا مانع لدى أسرتنا أن نؤخذ لمدرسة أسسها مبشرون، باعتبار أن تعليمها حديث ومستوى تعليمها ممتاز).*

ولكن يبدو أن فكرة الذهاب لمدارس المبشرين والمدارس الأجنبية لم ترق للصادق وإن لم ينتقدها في حينه، كما لم ترق لأخيه الأصغر فيصل الذي روي أنه انتقد الذهاب للكمبوني فقال له محاوره فائدتها أنك ستتعلم اللغة الإنجليزية فقال بصرامة: وهل يتحدث «سيدي» الإنجليزية؟ يعني الإمام عبد الرحمن. وفي حين أن كثير من أبناء وبنات أسرتنا في جيلنا درسوا في تلك المدارس، فإن رفض السيد الصادق لها ظهر في إصراره ألا يتعلم أياً من أبنائه أو يدخل المدارس الأجنبية، وكانت والدتي السيدة سارا قد أدخلت أخي عبد الرحمن في الكمبوني في صغره ولكنه حينما علم بذلك أصر على إخراجه منها وبالفعل اتخذ دراسته الابتدائية في مدرسة بيت المال الابتدائية بنين. وقد كان تعليم عشرتنا في مدارس حكومية.

الشاهد. أن عددا من أبناء الأسرة ومن بينهم الصادق ذهبوا للكمبوني الوسطى، وقال إن أشد ما صدمه حضارياً هناك كان الأكل بالشوكة والسكين!

في فيكتوريا بالإسكندرية

وقد رأى الإمام عبد الرحمن أن يرسل أفراد أسرته من بنين وحفدة لكلية فكتوريا

الثانوية بالإسكندرية لتلقي مزيد من علوم العصر وإجادة اللغة الإنجليزية. وفيكتوريا مدرسة ذات صيت جيد في المنطقة أنشأها الإنجليز وأطلقوا اسم مليكتهم عليها، وشجعوا أبناء الأسر الزعيمة على الذهاب إليها بغرض تنشئتهم وتغذيتهم بالولاء لبريطانيا ونزعهم عن جذورهم الحضارية.

ذهب عدد من أبناء الإمام عبد الرحمن لفكتوريا فذهب أولاً السيد الهادي. وبعد ذلك ذهب السيد يحي والسيد أحمد ولاحقاً السيد محمد، وتبعهم آخرون من الأسرة هم السادة حسين مأمون، وإسماعيل عبد الله، ومهدي الطيب، إضافة للسيد الصادق وأخيه السيد عصام الدين، وكان يفترض أن يكون معهم أخوه مصطفى الذي توفي صبياً، وكانت إجراءات سفره مع أخويه الصادق وعصام الدين قد اكتملت للسفر لفيكتوريا حينما حدثت الوفاة التي يرجّح أنها بالتسمم فكل ما يُعرف أنه تناول كوباً من اللبن من المبرّد، وبعد ذلك تتابعت العلة التي أدت لمفارقته الحياة مأسوفاً على صباه، وكانت تجمعه بأخيه صداقة ومحبة، وكان وقع وفاته عليه كبيراً.

خيمت وفاة مصطفى على أيام الصادق الأولى في فيكتوريا بكآبة تنم عنها الأبيات التالية التي وجدتها في كراسة من كراساته بفيكتوريا معنونة بـ«مصطفى» وموقع تحتها بـ«الصادق»:

يا زهرة شاءت ظروف ... الغد أن لا تزدهر

ويا هلالا أمر رب القبة ... الزرقاء ألا تقتمر

أبتك الزائلة المتمردة ... وشاء الله أن تك مستقر

رحماك[1] رفيق الصبا ... ذلكم الدرب الوعر

فوداعا، وداعا من ... العلقم أراه أمر

ذكراك في قلب أخيك ... لمر السنين وباقي الدهر[2]

(١) هكذا قرأتها وبعدها كلمة لم أستطع قراءتها.

(٢) الحقيقة أن أسرة الإمام الصديق قد نكبت بحوادث كثيرة تتابعت مع مر العقود، فبعد وفاة الطفل صفي الدين إثر حمى قاتلة في أواخر الثلاثينات، ووفاة أمه صفية في ١٩٤٧م، ووفاة مصطفى في أواخر الأربعينات، توفي الإمام الصديق نفسه وهو في فورة عطائه وحيويته في ١٩٦١، ثم توفي عصام الدين الشاب الألمعي الذي كان واعدا بذكائه الوقاد وأدائه العلمي الباهر بعد أن نال=

وجدت خطاباً من عم الصادق وابن خالته أحمد بتاريخ ٢٧/ ١/ ١٩٤٨م يحكي له عن أوضاعه في فيكتوريا يشوقه لها ويقول له: «أتمنى من الله الكريم أن تكون بخير وصحة جيدة ومبسوط في كمبوني كما أنا في فكتوريا وأن تكون مجتهد في دروسك وانصح لك يا أخي أن تعود لسانك على اللغة الإنجليزية بأن تقرأ كتب إنجليزي في إجازاتك، أما أنا فقد بقت لي اللغة الإنجليزية سهلة جداً.. إننا لن نتكلم عربي أبداً بل كل المحادثة بالإنجليزي، وأنك كما تعرف أنك ستلتحق بفكتوريا السنة الآتية أني مشتهي متى أجيء إلى السودان وأقابلكم جميعاً إني أعرفك أنك ستشتاق للمجيء إلى الاسكندرية إنها بلد لطيفة وسترى مصر وأحوالها وناسها وسترى فكتوريا وستنبسط منها يا عزيزي». ويسأل أحمدٌ الصادق عن أساتذتهم في كمبوني: الأستاذ عبد ربه وعبده وعبد الكريم وسعد.

قال الصادق: *(إن كلية فيكتوريا كانت تمثل فكرة واضحة عند الإنجليز الذين كانوا يسيطرون على الشرق العربي وأفريقيا، وكان من أفكارهم ضرورة أن يصير أبناء الأسر الكبيرة في المنطقة حاملين لثقافتهم، لذلك كونوا مدارس منها كلية فيكتوريا والغرض منها أن يأخذ أبناء الأسر الكبيرة في المنطقة تعليماً حديثاً مائة بالمائة، ولكنه أيضا منتمي تماماً للثقافة والحضارة البريطانية. نحن ذهبنا إلى تلك المدرسة لدراسة المرحلة الثانوية*[1]).

أنشئت كلية فيكتوريا في ١٩٠٣م ودرس فيها على مدى العقود أبناء زعماء المنطقة وأثريائها أمثال آل المهدي وعائلة أبو العلا من السودان، وآل الصباح وعبد الله النفيسي من الكويت، وآل سعود وعدنان خاشقجي من السعودية، وأبناء عائلات مسقاوي وغندور والحميضي وحمدان من لبنان، وإداورد سعيد ورفيق الحسيني وأبناء عائلات

=درجة الدكتوراة في علوم الجيولوجيا في ألمانيا عام ١٩٦٧ وكان عائدا للوطن وقد أعدت العدة لعرسه واختيرت العروس، وتوفي عمر العريس لتوه إثر حادث حركة عام ١٩٧٤م وكان ذاهبا للمطار ليستقبل أخاه صلاح القادم من سفر، ثم في سبتمبر ١٩٨٦م رحل صلاح نفسه في فاجعة أخرى وحادث حركة مؤلم مع ابن عمه الفاضل الهادي المهدي والسائق قريب الله، وفي ١٥/ ٨/ ١٩٩٤م رحلت أصفى إثر نوبة قلبية مفاجئة، وفي ٢٠٠٦م لحقت بها أختها الصغرى صديقة بنفس العلة.

(١)تضاريس الذاكرة، سابق ص ١٧

الفاروقي والدباغ من فلسطين، وأبناء الأسرة الهاشمية المالكة وعدد من العائلات الكبيرة من الأردن. والملك فيصل من العراق، والملك سيمون من أسبانيا والملك قسطنطين من اليونان وملك ألبانيا وملكة السويد، وسلطان زنزيبار، ومن مصر أفراد في أسرة محمد علي المالكة، ومن الفنانين المخرج يوسف شاهين وعمر الشريف.

وقد زامل بعض هؤلاء السيد الصادق المهدي إبان دراسته بفكتوريا ولعل أوثق صداقة ربطته مستقبلاً مع زملاء فيكتوريا كانت مع المرحوم الملك حسين ملك الأردن وشقيقه الأصغر الأمير الحسن.

والراجح أن الصادق ذهب لفيكتوريا في أواخر عام ١٩٤٨[1]، وقد وجدتُ خطاباً منه لوالدته السيدة رحمة بتاريخ ٢٢ فبراير ١٩٤٩م وكان بالإسكندرية يعرفها بأحواله هو وأخيه عصام الدين ويقول إنهما لا يحتاجان لدروس خصوصية. ويتحدث عن ذهاب عواصف البرد مما يشي بأنه حضر ذلك الشتاء في الإسكندرية.

ظل الصادق في فيكتوريا حتى العام ١٩٥٢ أي بقي فيها أكثر من ثلاث سنوات بخلاف الانطباع الذي قرّ بذهنه وتلقفناه في كتابتنا لسيرته المختصرة من أنه بقي فيها عاماً واحداً. وآخر خطاب أرسله لوالدته من الإسكندرية وجدته بتاريخ ١/ ٧/ ١٩٥٢م، ولم يكن يبدو عليه في ذلك الخطاب أنه قرر العودة بعد. فقد طالبها فيه بكسوة شاكياً من أنه «مقطع جداً».

وروى الإمام الصادق مؤخراً للصحفي وجدي الكردي بأن الصدمة الحضارية له في فيكتوريا كانت التحول في طريقة الحياة، فلبسوا الروب والبيجامة، والأشد من ذلك أنهم في الإسكندرية كانوا يشاهدون الفتيات والنساء شبه عاريات يلبسن المايوه في «البلاج». وكانت تلك صدمة بالطبع لمن تربى في المحيط الأم درماني الذي يتغنى فيه المغني لو حظي بمشاهدة المرأة الملفلفة بالثوب ولو لمحاً كما في أغنية شاعر الحقيبة سيد عبد العزيز:

---

(١) يذكر السيد الصادق في مذكرات كتبها عام ١٩٨٣ أنه ذهب لفكتوريا عام ١٩٥٠م، ولكن مراجعة كتاباته لوالدته تؤكد أنه في فبراير ١٩٤٩م كان قد قضي في الإسكندرية فترة تسمح بإرسال خطابات سابقة عديدة أشار لها، وربما كان ذهابه في أكتوبر ١٩٤٨م حيث يورد في خطاب له لأخيه عصام ان دراسته تبدأ في ٥/ ١٠

حاول يخفي نفسه وهل يخفى القمر في سماه.. أبداً وطبعا لأ شفناه شفناه!

وقصتها أن الشاعر حظي برؤية محبوبته وهي تخرج من بيتها للمحة تفرغ فيها جردل المياه في الشارع!

ولما سأل الكردي الإمام الصادق كيف عصم نفسه من هذه (البلاوي المتلتلة)، قال: *إنه كان يخرج أيام الآحاد من الداخلية المنضبطة إلى منزل علي عبد الله البنا، من أسرة البنا وابن شاعر المهدية الشهير، وكان محكوماً عليه بالاعدام لاشتراكه في ثورة ١٩٢٤ م، فتوسط له الإمام عبد الرحمن فأطلق الإنجليز سراحه. فلجأ لمصر والتحق بجيشها حتى وصل لرتبة اللواء، وصار قائداً لحرس السواحل في الاسكندرية.* وبحسب رواية وجدي فإن الإمام الصادق المهدي أضاف بحسم : *بالطريقة دي ما كان في (كدة ولا كدة).*

وكان التزامه الديني كبيراً لدرجة أثارت انتقاد أقرانه، وتروي المرحومة والدتي السيدة سارا عن صباه وشبابه أن أخاها الطاهر رحمه الله وغيره من أبناء عمات الصادق في الأسرة كانوا يلقبونه بـ«سيدنا موسى» تندراً وإشارة لصرامته والتزامه الديني.

ولكن هذا الالتزام كان ممزوجاً بشخصية كثيرة المزاح، وقد استمر معه المزاح وشهدنا طرفاً منه ولا زالت فيه بقية، وإن قللته أحوال البلاد وهمه المستمر بها.

وكان باراً محباً خاصة بوالدته، مع بروز نقده لما يدور حوله من تصرفات. والمطلع على خطاباته المتواصلة لوالدته ينظر لهذه الملامح في شخصيته بجلاء.

فكان يخاطبها بـ«والدتي الشفوقة» أو «والدتي الحنونة» ويخبرها بكل أحواله ويسأل عن أحوالها في شفقة، ونحن نعلم من إحدى رسائله لها إنه قد أجريت له عملية «خراجة» عام ١٩٥٠ : (أخبرك يا والدتي بأن الخراجة بدأت تؤلمني يوم بعد يوم حتى قرر الطبيب إخراجها وأخرجت يوم السبت الموافق ٢٩/ ٤/ ١٩٥٠م). وكان في خطاباته دائم السؤال عنها وعن جداته بنات المهدي أم سلمة ومريم وجده عبد الله وخالته سكينة وأولادها وأخوانه الصغار وكذلك كل سكان المنزل من الأهل والأنصار يسأل عنهم فرداً فرداً، مثلاً (*أمي أرجو أن يبلغ سلامي إلى أعزائنا خالتي بخيتة وعبد الله وسعيدة والسارة وبدر الدين وجمعة إذا كان هناك وإلى زينب وإنشاء الله تكون قد رزقت*

بزواج وسلامي إلى جميع أهل البيت الذين لا أقدر أن أحكم أنهم موجودون أم لا)[1].

وتظهر ممازحته لأخوانه الصغار حليف الدين (فيصل) وصلاح الدين ويقول لوالدته في خطاب كتبه في يوم ٢٢/ ٦/ ١٩٥٢م إنه كثير الشوق إليهم «فقد رأينا من السخافات ما جعلنا نشتاق إلى شجارهم ولذتهم الممزوجة بقليل من التحلفة»[2]، ثم ينتقد حال أسرة المهدي العريضة من ثراء بدأ يظهر على أفرادها، وكان يعارض ذلك بشدة ويكاتب الإمام عبد الرحمن منتقداً السكنى في السرايا ومظاهر الثراء البادية منادياً بالصرف على أولويات أخرى، وفي خطابه المذكور لوالدته يقول لها (*ما هذه الأفواج من عائلة المهدي تغزو البلاد الشرقية كما غزت أوربا في العام الماضي، أهذا مفعول الحر أم مفعول القطن.. آه لو كان الأمر لي)!!*

وتعامله الحميم مع والدته كان يظهر في خطاباته وطلبه عفوها ومزاحه معها. فذّيل خطابه الذي أخبرها فيه بعملية الخراجة التي أجراها بملحوظة نصها: (*أمي إني حاولت أن اعتذر وأتوب لكي عن كل ما فعلت من معاكسات قبل الحضور إلى هنا ولكن لم أجد فرصة مناسبة لذلك عندما كنا في السودان ويا والدتي الآن أرجوك العفو عني والمعذرة*).

وفي الخطاب الذي طالب فيه بالكسوة كتب ملحوظة بين قوسين: (هدوم مفيش!)

وفي خطاب بتاريخ ٦/ ٦/ ١٩٥٢م أخبرها بزيارتهم للوفد يعني وفد حزب الأمة المرسل لمصر للتفاهم مع قيادتها بشأن مصير السودان. وقال لها (*قابلنا السيد مهدي الخليفة وسأل عنكم كثيراً فإنه كما قلتم شخص مرح كثير النكات وكل ما أنظر في وجهه*

(١) خالتي بخيتة من أقرباء أمي رحمة من ناس أم جر كانت تقيم في الملازمين، وقد عاصرناها وكانت محجيتنا في طفولتنا بالأحاجي السودانية المعروفة نحو فاطمة السمحة وود النمير وغيرها. والعم عبد الله مسبل كذلك كان من المقيمين بالبيت وكان انصاريا صارم القسمات والأفعال، وأيامنا كان ضابطا لكل حركة بالمنزل. وحاجة السارة كانت رفيقة أمي رحمة حتى توفاها الله، وسعيدة وزينب الجرارية كذلك من بنات الحوش.

(٢) يستخدم الحبيب كلمة تحلفة، وتعني الاتساخ، وهي من منحوتاته اللغوية رجوعا للحلوف (الخنزير) وهو معروف بعيشه مع القذر، فكان يسأل الواحد والواحدة منا إذا بدا متسخ الثياب: التحلفة دي شنو؟ وأظن أن اهتمامه بالنظافة عائد لوالدته أمي رحمة التي كانت طويلة الإقامة بالحمامات، سواكا واستحماما.

واتذكر حادثة «القعونجة» أبداً في الضحك). والسيد المذكور ابن خالة أمي رحمة فوالدته السيدة أم كلثوم المهدي، ووالده خليفة المهدي. وقصة «القعونجة» أي الضفدعة، مفادها أن السيد محمد المهدي وكان رجلاً شجاعاً قوي البنية فارع الطول وهو من أفراد الأسرة الذين شاركوا في ثورة ١٩٢٤م، ولكن كانت لديه فوبيا أو فزع مرضي من الضفادع. وفي مرة بينما هو في طيبة (إحدى القرى بالجزيرة أبا) همّ بأن يلبس حذاءه (المركوب) فإذا بالضفدعة داخل الحذاء الذي هم بإدخال قدمه فيه، فما كان منه إلا أن قفز قفزة واحدة التحق فيها بالنافذة وكانت نوافذ المنازل عالية مما يدل على قوة الاندفاع، وأصابته حالة من الفزع أسطورية وصار يستنجد بأعلى صوته: شيلوها الملعونة!! وحينما جاء أهل المروءة والنجدة اتضح أنها مجرد ضفدعة!

والحقيقة أن الفوبيا من المخلوقات الحية سائدة لدى كثير من الناس، مثلا البعض في بيت الإمام الصديق لديهم فوبيا من العنكبوت، وآل الخليفة الحسن (أسرة خالنا المرحوم السيد سر الختم الخليفة) بعضهم لديهم فوبيا من القطط، وفي بيت الإمام عبد الرحمن المهدي البعض لديهم فوبيا من الضب، ويروى أنه كان هناك شخص متخصص في اصطياد وقتل (الضبابة) يحضر لبنات الإمام عبد الرحمن ليخلصهن منها، وفي مرة جاء لأمي أم سلمة ابنة الإمام عبد الرحمن رحمها الله ووجدها مرعوبة من ضب في الغرفة ومبتعدة فهم باصطياده وهي خائفة من أن يفلت منه ويتجه نحوها فصارت تكرر له العبارة: بالتي هي أحسن، بالتي هي أحسن!

الشاهد، استأنف الصادق قصصه المرحة لوالدته فكتب لها (*قيل إن بابو نمر عندما غمرته حفاوة المصريين إذ كانت تنقلاته بالعربات الفخمة بين المباني الفخمة جلس في كرسي فخم مع بعض المصريين فوجد الكرسي مريح جداً فقال: جعلتم الموت حرام في القاهرة*)!

خبطتان على الرأس توجع!

لم يكن الصادق الملتزم دينياً والمربوط بجذوره الحضارية لدرجة كبيرة سعيداً بحياته في فيكتوريا وإن لم تظهر منه الشكوى بشكل مباشر، ولكن بدى عدم تحبيذه للدراسة في فيكتوريا في أنه سعى لئلا يلحق أخوته الأصغر كفيصل وعمر بفيكتوريا بعد إتمام المدرسة الوسطى. فقد خاطب والده بذلك، وفي خطاب منه إلى والدته يقول لها:

(أمي أرجو مهما صارت الأحوال أن لا تسمعوا لقول السيد محمد[1] وترسلوا حليف الدين وعمر هنا لأن المدرسة قد فقدت كل ما كان معروف عنها). وحليف الدين هو الاسم الذي أطلقه على أخيه فيصل.

وكانت تلف بالصادق هناك روح تمرد على الجو المحيط من جهة، وشوق لظلال المهدية وذكراها من جهة أخرى، وفي إحدى كراساته بفيكتوريا «تمثيلية قصيرة» بين شخصين (عمر وعلي) ذهبا لملاقاة الإمام عبد الرحمن (أبو الصديق أسد الغيل، حاتم الكرم، أيوب في الصبر، يوسف الطلعة، عمر العدل) وزارا قبة المهدي ثم اتجها لكرري حيث قال عمر لعلي:

وبعد القبة فلنزر أبا فاطمة[2] في الخلاء

ونتأمل تلك الأماكن التي كانت يوماً مجاري دماء

ونذكر ذاك اليوم الذي لم تجد في الراحة أواء

حين فصل الفيصل ورأت الصافنات آراء

ونناجي البطل محمد أبو الشهداء

فشهيد كرري أنت كذلك جدك في كربلاء[3]

وأنت ترى الصادق الصغير برغم محاولات النزع الحضاري في فيكتوريا وقلبه معلّق بأبي الصديق وأبي فاطمة، يحاول على قدر ما أتاحه تعليمه أن يعبّر عن تلك الأشواق!

وبالتالي فإن ما اعتبره عمه أحمد في الخطاب المذكور آنفاً مصدر سعادة من تحدث

---

(١) يعني السيد محمد الخليفة شريف خال والده الإمام الصديق ويبدو أنه كان المشجع الرئيسي لفكرة إرسالهم لفيكتوريا.

(٢) أبو فاطمة، والأحدب، وراجل الجبل، كلها ألقاب لمحمد الابن الأكبر للإمام المهدي وأول شهداء كرري.

(٣) من كراسة لكلية فيكتوريا، وكانت للكلية كراسات خاصة بها زرقاء الغلاف ملصق عليها ورقة لكتابة الاسم والمادة مكتوب عليها Victoria College ، وهذه الكراسة كانت لكلمات إنجليزية English words ولكن في الصفحات الخالية في نهايتها توجد العديد من الكتابات بالعربية ربما استخدمها الحبيب بعد نهاية السنة الدراسية.

باللغة الإنجليزية وحدها ومنع التحدث باللغة العربية لم يكن أمراً مرضياً لديه. وفي الشهور التالية لخطابه الأخير لوالدته من الإسكندرية المشار له آنفاً، والأرجح أن ذلك في عام ١٩٥٢ نفسه حصلت له عدد من الأحداث التي جعلته يقرر هجر فيكتوريا للأبد.

أهم تلك الأحداث حدثان تضافرا ليجعلا الصادق يفر من فيكتوريا فراره من الأجرب. وصحيح، خبطتان على الرأس توجع!

وبكلمات الصادق التي خطها لاحقاً قال: (*منذ الأيام الأولى في كلية فكتوريا استبدت بي وحشة الغربة في الوسط المدرسي لأنه كان متعصباً للثقافة الإنجليزية ممتثلاً لسلوكها الاجتماعي. وبينما كان الوسط المدرسي إنجليزي الوجه واليد واللسان، كان الوسط السياسي المصري متفجراً بتيارات وطنية معادية للإنجليز. وكانت هذه التيارات الوطنية تصل إلينا في المحيط المدرسي في أخبار وأقوال الصحف المصرية، وعلى ألسنة بعض مدرسينا من المصريين مثل الأستاذ عزازي الذي كان لا يترك فرصة في الفصل تمر دون أن يهاجم الإنجليز واستعبادهم للشرق والأمريكان ووراثتهم لمصالح الاستعمار.*

وذات يوم زار فصلنا مفتش اللغة العربية بوزارة المعارف المصرية ووجه الزائر إلى فصلنا أسئلة يختبر فيها مستوانا في اللغة العربية. ولم يحر الطلبة جواباً فقد كان تعليم اللغة العربية مهملاً. ولكي يظهر لنا جهلنا الفاضح بالعربية تحدانا طالباً أن ينشد أمامه واحد منا بيتاً واحداً في الشعر العربي خالياً من الخطأ في النحو وفي الوزن. وتجرأت فأنشدت بيتا من قصيدة درسناها في الفصل فكسرت البيت وزناً وأخطأت قواعد النحو، فضحك علينا الأستاذ وأضحكنا على أنفسنا وأشعرنا بلوم شديد لأنفسنا. كان البيت الذي حاولت إنشاده فهدمت وزنه ونحوه هو:

افاطم لو شهدت ببطن خبت ... فقد لاقى الهزبر أخاك بشرا

إذا لرأيت ليثاً أم ليثا ... هزبراً أغلبا لاقى هزبرا

وزاد شعوري بالغربة وعدم الرضا في هذا الوسط، ونقلت شعوري لوالدي ورجوته ألا يرسل إخوتي الصغار إليه وأن يعيد النظر في استمراري فيه.

وكان الأساتذة البريطانيون يحسون بلسع الحركة الوطنية المصرية واستنكارها لكل

ما هو بريطاني بما في ذلك كلية فكتوريا- وذات يوم تسلل بعض الطلبة إلى مكتبة الكلية وحطموا صورة تذكارية لملك الإنجليز – الملك جورج- كانت معلقة في صدر المكتبة معبرين عن تجاوبهم مع المشاعر الوطنية المصرية. فوضعت إدارة المدرسة سياسة لمقاومة هذه التيارات وألف أستاذ اللغة الإنجليزية المستر سويبي قصيدة في مدح الملكة فكتوريا أعجبت بها إدارة المدرسة وقررت أن ينشدها الطلبة صباح كل يوم قبل بداية الدراسة. كانت القصيدة باللغة الإنجليزية ومطلعها: فكتوريا، فكتوريا، يا نبيلة، يا عزيزة، إن اسمك هو اسمنا، هو فخرنا، ذكرى لك في الخالدين.

وفكتوريا- كما هو معلوم- كانت ملكة بريطانيا أيام غزو السودان حين قاد كتشنر جيشاً تميز بالوحشية كما تميز مصادموه من أهل السودان بالبسالة، فبقيت ذكرى حملته حية في تاريخنا وفي القصص التي تقصها الجدات (الحبوبات) في السودان على الأطفال جيلاً بعد جيل.

فهل من المعقول أن تكون في ذاكرتي هذه القصص ولا يثيرني هذا التمجيد لفكتوريا؟

كان هذا التغني الإجباري قاصمة الظهر فعدت إلى السودان مصمماً ألا أواصل التعليم في فكتوريا[1].

في رفقة السراج

قال الصادق إنه عاد السودان ومزّق كتب فيكتوريا وقرر هجر التعليم النظامي، والالتحاق بالشيخ الطيب السرّاج مرافقاً له لينهل منه علوم اللغة العربية. وروى لنا في ثمانينات القرن الماضي حول رفقته لشيخ الطيب ونهله من حديثه فقال مبالغاً: كنت أدوّن كل شيء يقوله شيخ الطيب حتى ولو كحّ أدون كحته!

وللشيخ السراج وعلاقته بالإمام عبد الرحمن وأسرته قصة سبقت ملازمة الصادق له.

فقد كان المحيط الأسري المترع بإرث الإسلام عامة والمهدية على وجه الخصوص يشكل عاصماً لبعض أبناء الأسرة من الانجراف والنزع عن الجذور الذي خططت له المؤسسات التعليمية التي ولجوها، بينما وجد البعض الآخر في الحضارة الحديثة

(١) من مذكراته المدونة في ١٨ مارس ١٩٨٣ بعنوان ثلاث سنوات في خمسينات القرن

واللغة الإنجليزية فتنة كبيرة.

وكان الإمام عبد الرحمن المهدي يقدر أن البيئة الأسرية والتربية الأنصارية وآدابها ستكون عاصماً للجميع، وحينما لاحظ بعد حين فجوة في تعليم صغار أسرته من ناحية الثقافة العربية والإسلامية خطط لسدها بعمل دروس خصوصية للأولاد والبنات يلقيها عليهم الشيخ الطيب السراج، وهو موسوعة في علوم اللغة العربية بل متحف متحرك يعيش كأنما في العهد العربي القديم وكانت علاقته بالإمام عبد الرحمن تجذرت ضمن الصالون الأدبي الذي كان يختلف إليه فطاحلة الأدباء والشعراء، وحينما عاد السراجي من جولته في الحجاز ومصر ثم داخل السودان حيث ذهب للقضارف عاد واستقر بأم درمان عام ١٩٥٢م وعمل في دائرة المهدي واستعان به الإمام عبد الرحمن لكتابة تاريخ المهدية[١]. وفي هذه الفترة صار الشيخ السراج يتردد على الأسرة ليلقي الدروس على الصبيان والفتيات، وقد روت أمي السيدة وصال كيف كان يعامل الفتيات بجفاف شديد ويأنف أن يرد على السائلة منهن إن سألت فيوجه حديثه للذكور رداً عليها! وقالت إنهم اختلفوا في تلقيهم لتلك الدروس، ففي حين لم يأنسها بعضهم وكان يتهرب ويتأفف، كان آخرون بها شغوفين. وكان السيد الصادق من الأخيرين، فهو لم يكتف بتلك الدروس فحسب، بل لازم شيخ الطيب كظله، ووجد في كلامه حلاوة وطلاوة، كأنه مادح الأنصار وهو يصف الإمام عبد الرحمن (من الحلو ما بنتر)![٢]

ذكر السيد الصادق رفقته للشيخ الطيب السراج قائلاً:

(في السودان صادفت عالماً عبقرياً هو الشيخ الطيب السراج. كان الشيخ الطيب ملماً بمعارف التراث الإسلامي، متبحراً في اللغة العربية وأدبها، مشدوداً لماضيها متعشقاً لجمالها. وكان الشيخ الطيب رجلاً حاضر الذهن سريع البديهة كثير الدعابة، رافضاً للاستعمار البريطاني لا على أساس سياسي بل على أساس أعمق، على أساس رفض الكفر والعجمة. سأله أحد الناس ذات مرة ألا تسافر إلى بريطانيا؟ فرد: إلا غازياً إن شاء الله).

(١) حديد السراج الشيخ الطيب السراج حياته وشعره

(٢) من مدح العم عابدين: من الحلو مابنتر، بمدح ساند العتر يا اب علامة سيدى اللى العيب ستر، وأب علامة هو الإمام عبد الرحمن المهدي سمي لذلك لعلامة كبيرة في صدره.

وتلقى الصادق دروساً كذلك على يدي الشيخ يوسف إبراهيم النور، قال: (*وهناك شيخ آخر الشيخ يوسف إبراهيم النور، وهو رجل فقيه ومتخصص قراءات.*[1])

وحول التلقي على يدي السراجي يواصل الإمام:

(لزمت مجلس الشيخ الطيب لأكثر من عامين[2] *أتعلم منه ما شاء أن يعلمني دون التزام منهج خاص. وكنت أحياناً اصطحبه إلى جامعة الخرطوم حيث يلتف حوله بعض الطلبة يستفيدون من علمه الواسع ويضحكون حتى تجري دموعهم لفكاهته اللاذعة وهجومه الغريب على الاستعمار والشيوعية، هجوم لا يشبه طريقة النقد المعهودة بل يتخذ طرقاً طريفة: إن لغاتهم مبنية على السكون وهذا دليل ضعفها، وأنهم يستنجون بالورق وهذا دليل تخلفهم وهكذا).*

وكان مما أخذني في أحاديث السيد الصادق حول شيخ الطيب هو حديثه عن تقديره لآداب العامية السودانية وولعه بها، ولفنون أهل السودان، مما يتناقض مع متحفيته وولعه بالعروبة في طبعتها القديمة، ويبدو أن الإنسان إذا فاض علمه بالفصحى كان أقدر على تعشّق العامية، وما المشكلة إلا في أنصاف المستعربين، الذين يحاولون إفهامنا أن التزامنا بالعروبة معناها نفي أي انتماء وطني محلي ونفي اللسان العامي بالتالي. فقد كتب البروفسر عبد الله الطيب رحمه الله في مقالته الرائعة (من سلال اللا معقول)[3] معلناً عشقه للجابودي، وهو نوع من غناء شعبي تغنيه البنات، وأورد بعض أبياته، وبروفسر عبد الله هو من نعلم في عمق معرفته بالعربية. وأورد محجوب عمر باشري في كتابه (رواد الفكر السوداني) أن الشيخ السراج كان مفتوناً باللغة الدارجة عالماً بخباياها ودقائقها كما كان كذلك بالنسبة للعربية.

---

(١) برنامج شاهد على العصر مع الإمام الصادق المهدي، الحلقة الأولى بثت في يوم الأحد ٢٦ يوليو ٢٠١٥م

(٢) رفقة الصادق للشيخ السراج استمرت منذ عودته من فيكتوريا في النصف الثاني من عام ١٩٥٢م وحتى سفره لبريطانيا في أبريل ١٩٥٤م، ولكنه أثناء ذلك كان قد دخل كلية الخرطوم الجامعية فكان يوزع نفسه بين الدراسة في الكلية وبين الزمان الذي يقتطعه لمرافقة شيخ الطيب.

(٣) المقالة واردة في الكتاب المعد تأبيناً للراحل الكبير جمال محمد احمد (في سيرة جمال كاتب سرة شرق)، وفي كتابه ذكرى صديقين

وقد حكى السيد الصادق أن الشيخ السراج كان له تذوق كبير للفن السوداني، فقد كان يرتجف طرباً من قول المغنية: «سنك ريال جيد، ودقاقها مو بليـّد» معتبراً ذلك البيت قمة في الفصاحة والإبداع. ويروي عنه أبيات قالها في مطلع قصيدة امتدح فيها الإمام عبد الرحمن المهدي، بينما الأبيات جذبية في الإعجاب بصوت المغني السوداني الشهير حسن عطية رحمهما الله، تقول الأبيات:

ما هاج قلباً بعد طول سكونه ... فأقام فيه قيامة بسكونه

كمرجع رقت حواشي صوته ... في خفضه وعلوه وسكونه

والسراجي، كما كان يسمي نفسه، عالم باللغة الإنجليزية مجيد لها وإن لم يكن بها معجباً كما مر. وعمل ترجماناً في الجيش البريطاني وتنقل بين الوظائف الحكومية حتى خاصم البريطانيين واستقال في ١٩٤٦م ثم ذهب للحجاز، فمصر، وعاد للسودان وعمل ردحاً من الزمان في دائرة المهدي وكانت تجمعه صداقة بالإمام عبد الرحمن المهدي الذي كان يصادق الشعراء ويعقد لهم صالوناً أدبيا كما ذكرنا، وقد أشاد بصالونه العلامة البروفسر عبد الله الطيب، وذكره كذلك معلم الأجيال العميد يوسف بدري. وقد أوكل الإمام عبد الرحمن للسراجي مهمة كتابة سفر عن المهدية يجلي عنها غبار التشويه.

وحينما عمل السراجي بعطبرة قبل استقالته من الحكومة صادق محمد فاضل بك المصري قومندان أورطة السكة حديد، الذي خاطبه ببيت الشعر التالي:

إيه يا فحل عطبرا وفتاها ... أنت فينا المغبوط لا المحسود

أما «مجلس السيد عبد الرحمن» فقد كتب عنه العميد يوسف بدري قائلا: (جلس ابن المهدي في داره يستقبل العلماء ويتعامل مع العائدين من كرري حتى أصبح مجلسه مدرسة جديدة في دنيا سماء السودان المقهور)[1]. ثم وصف المجلس في موضع آخر بأنه كان يجمع (الظرف والفكاهة مع كل ما فيه من جد ومسؤولية، ومن دعامة جماعة الفكاهة الأستاذ عبد الله بشير سنادة والأديب حامد العربي والسيد أحمد حميدة المعروف بالزعيم.)[2].

(١) مذكرات العميد يوسف بدري قدر جيل ص ٢٢٥

(٢) نفسه ص ١٩٨

الشاهد، الشيخ الطيب السراج ومع احتقاره للفرنجة، كان مقدراً للعلم تقديراً كبيراً، وهو القائل:

إن العلـــوم هـــي العـــلا إن العـــلا ... يصـــبو إليهـــا ماجـــد الأعـــراق
نبـــذ الرقـــاد لأجلهـــا فكانـــه ... عســـس يراقـــب عـــادي الفســـاق
يـــا أيهـــذا المبتغـــي شـــأواً بـــلا ... كـــد ولا ســـهد علـــى الأوراق
أقصـــر عنانـــك لـــن تـــزال محـــاولاً ... عبثـــاً إذا لم تلـــق مـــا أنـــا لاق
(أأبيـــت ســـهران الـــدجى وتبيتـــه ... نومـــاً وتبغـــي بعـــد ذاك لحـــاقي)
شـــيئان متفقـــان أن يتفرقـــا ... أبـــداً ســـعود والتـــزام عنـــاق
مـــا أشـــبه الأقـــلام عنـــد صـــريرها ... بالســـيف يكـــدم بيضـــة البقبـــاق[1]

ونحن لن نترك الحديث عن السراجي، ذلك الرجل الفذ، قبل الإشارة لنهايته المفجعة على يد قاتل سفاح مزقه بسيفه، وقد رثاه الشاعر الضخم محمد المهدي المجذوب بقصيدة (مصرع السراجي) قدم لها بالجملة «دخل عليه قاتله ففلق رأس الشيخ بسيفه المعلق إلى جانبه»، وختمها بالبيت الآيس:

يمضـي بنـا الأفـق الماضـي ويسـلمنا ... إلـى العواصـف والعقبـان والـرخم

في كلية الخرطوم الجامعية

ترك الصادق التعليم في فيكتوريا بدون أي أفق أمامه وكما قال إنه لم يكن يعرف ما هو الصحيح الذي يجب عليه فعله ولكنه كان يعرف أن فيكتوريا كانت الدرب الخطأ. وذهب خلف شيخ الطيب حتى قادته قدماه لكلية الخرطوم الجامعية.

تابعوا السرد بكلماته:

(كنت أتتلمذ على الشيخ الطيب معجباً بعلمه وأسلوبه، وأواجه مشكلة تزداد مع الأيام لم أحر لها حلاً هي: إننا كما يقول أفضل الأمم، ولغتنا هي سيدة اللغات، فما الذي جعل شعوبنا وبلادنا كلها في قبضة أوروبا؟ بدا لي أن لتفوقهم العلمي التقني دخلاً في

(١) حدبد الطيب السراج الشيخ الطيب السراج حياته وشعره ص ١٩.

تمكينهم من التحكم في أمورنا.

هذه هي الثغرة التي دخل منها أستاذ مصري قابلته في جامعة الخرطوم اسمه ثابت جرجس، والمادة التي كان يدرسها هي علم الحيوان (زولوجيا). لقد أدخل الأستاذ في نفسي الرغبة في معرفة العلوم الطبيعية وشجعني بأن اقترح عليّ الجلوس لامتحانات شهادة أكسفورد الثانوية من المنزل، واقترح أن يعطيني دروساً خصوصية لأتمكن من الجلوس لذلك الامتحان. واستطعتُ أن أحصل على شهادة أكسفورد في ستة مواد في مدة قصيرة بدرجة جيدة في ستها. وكانت أربعة من المواد علمية: كيمياء، فيزياء، أحياء ورياضيات.

واقترح عليّ الأستاذ ثابت أن التحق بكلية العلوم في جامعة الخرطوم كمستمع، وكان الأستاذ نفسه مدرساً فيها، فالتحقت بالكلية كمستمع. وكان طلاب السنة الأولى الذين انضممت إليهم في الفترة الثالثة والأخيرة من العام الدراسي. وتحدث الأستاذ ثابت مع عميد كلية العلوم المستر ساندون فعرض عليّ العميد عرضاً مشجعاً: إذا استطعت اجتياز امتحان نهاية العام الدراسي مع قصر مدة التحاقي بالفصل فإنهم سوف ينقلونني للسنة الثانية. فشكرته على ذلك وبذلت جهداً كبيراً في المذاكرة ونقل المحاضرات التي فاتتني، وكنت أمد الليل مداً مستعيناً بقماش مبلل بماء بارد أعصب به رأسي نفياً للنعاس والنوم.

وجاء الامتحان، ونجحت فيه ونقلت للسنة الثانية. وذات يوم طلبني المستر ساندون (العميد) وقال لي إنه اضطر لإعادة النظر في نقلي للسنة الثانية رغم نجاحي ووعده السابق لأن ما حدث لي سيصبح سابقة، وسيأتي آخرون يطالبون بنفس المعاملة!! واحتججت بأنني لم أخطط لما حدث بل حدث صدفة. ولكن العميد ألح على موقفه وعرض عليّ أحد أمرين: أن أقبل الإعادة مع طلبة السنة الأولى أي أبدأ الدراسة الجامعية من جديد. أو أن التحق بجامعة أخرى. فرفضت الخيار الأول فاقترح عليّ أن يعاونني للالتحاق بجامعة أكسفورد فشكرته وطلبت منه أن يقدم لي وسأفكر في أمري. وبعد شهر من تلك المحادثة جاء خبر قبولي للالتحاق بكلية سانت جون (القديس يوحنا) بأكسفورد لأدرس زراعة، لأن عزمي كان أن أدرس زراعة في جامعة الخرطوم لولا ضياع فرصتي بالصورة التي قصصتها.

كان القبول مصحوبا بشرط واحد هو أن أنجح في امتحان الدخول للجامعة.

وقبلت أن أجلس للامتحان دون السفر إلى بريطانيا، فتم اتفاق بين كلية القديس

يوحنا وكلية العلوم بجامعة الخرطوم أن تضع الأولى الامتحان (امتحان الدخول) وترسله للثانية فتشرف على امتحاني في السودان. ونفذ هذا الاتفاق، فبينما كان زملائي في السنة الثانية في جامعة الخرطوم يجلسون لامتحاناتهم كنت أجلس- يراقبني المستر ساندون- لامتحان الدخول لأكسفورد).

***

ولو جئنا لتحديد التواريخ بشكل دقيق فيبدو أنه في وقت ما في أواخر عام ١٩٥٢م، أي بعد فترة قليلة من مفارقته فيكتوريا قابل الصادق الأستاذ ثابت جرجس، وأن التحاقه بالجامعة كان في أواخر ١٩٥٢م لأن آخر العام بكلية الخرطوم الجامعية هو أول مارس كما هو التقليد الذي استمرت فيه جامعة الخرطوم بعدها.

وبحسب ما ذكر السيد الصادق فإنه استمر بعد ذلك في الدراسة وبينما زملاءه في السنة الثانية يجلسون لامتحاناتهم كان هو يمتحن للالتحاق بأوكسفرد.

وكان الصادق مقيماً في الداخلية. وكان يحضر المحاضرات صباحاً، ويواصل تلقي دروس العربية من الشيخ الطيب السراج عصراً، ثم يدرس مساء للحاق ما فاته والتحضر لامتحان السنة النهائية. وكانت فترة عصيبة من الدرس والاجتهاد، بيد أن هذه المشغولية الشديدة رافقته كظله ولم تتركه أبداً، وفقه الله وحفظه وأعطاه القوة لمواصلتها، فهو دائماً مشغول كأنما الامتحان غداً! وبتعبير ابنة خالتنا ووالدها كان استاذاً جامعياً حيث يكون مشغولاً جداً أيام الامتحانات بالتصحيح واستخراج النتيجة وما إليه، وسألتنا يوماً: أبوكم هذا متى تنتهي امتحاناته؟

ونرى ذلك في خطاب من أخيه عصام الدين لوالدته رحمة في أوائل فبراير ١٩٥٣م يسأل عن أحوال أخيه الأكبر راجياً أن (يكون الصادق بخير إذ أنه دائم السهر والشغل).

النشاط السياسي في كلية الخرطوم الجامعية:

يقول السيد الصادق[1]:

(لقد انفتح ذهني للسياسة في جامعة الخرطوم. فقد دخلت الجامعة في مرحلة احتد

(١) مذكراته بعنوان: ثلاث سنوات، سابق

فيها الصراع الفكري بين اتجاهين: إسلامي وشيوعي. واحتد فيها كما احتد في السودان عامة نزاع بين تيارين سياسيين: أيستقل السودان أم يتحد مع مصر؟

كان الطلبة النشطون في الحركة الإسلامية في الجامعة قد كونوا لأنفسهم حركة تحرير إسلامي نازعت الشيوعية سيطرتها على أوساط التعليم العالي في السودان أوائل الخمسينات. ولكن هذا الاتجاه انجذب نحو الحركة الإسلامية الحديثة في مصر: حركة الأخوان المسلمين.

وكان غالبية طلبة الاتجاه الإسلامي السودانيين يميلون للاتحاد مع مصر تأكيداً للروابط التي قامت بينهم وبين حركة الإخوان المسلمين في مصر.

أما الطلبة الشيوعيون السودانيون فغالبيتهم كانت تؤيد استقلال السودان لأن الحركة الشيوعية كانت وقتئذ تعتبر النظام المصري (بقيادة محمد نجيب وجمال عبد الناصر) خدعة أمريكية.

وكان موقفي الفكري إسلامي وموقفي السياسي استقلالي. ولم يكن في الجامعة في ذلك الوقت تنظيم لأمثالي من أبناء الأنصار كما هو الحال اليوم، وكنا في نطاق الجامعة نعاني يتماً فكرياً وسياسياً.

كان معي الأخ عمر نور الدائم والأخ مهلب عبد الرحمن على طه، وكان معنا كمال الدين عباس وهو من الطلبة القلائل من غير أبناء الأنصار الذين أيدوا حزب الأمة في وقت كانت الدعاية المصرية قد افترت على حزب الأمة افتراءات لصقت به وصدت عنه غالبية المثقفين السودانيين[1].

لم نجد فئة طلابية ننتمي إليها ولكن بحكم التوجه الإسلامي قامت صداقات بيننا وبين بعض الطلبة الحركيين أمثال مدثر عبد الرحيم وحسن الترابي.

وبينما كنت في جامعة الخرطوم انشقت من الإخوان المسلمين جماعة سميت الجماعة الإسلامية بقيادة بابكر كرار رحمه الله. وكان اتجاه هؤلاء قريباً جداً مني لأنهم إسلاميون فكرياً واستقلاليون سياسياً. ورغم التعاطف لم تقم بيني وبينهم علاقة تنظيمية

(١) سوف نوضح لاحقاً أن انصاف الإمام عبد الرحمن وحزب الأمة بدأ مؤخراً وسط دوائر الأكاديميا وفي أوساط كثيرة وإن كان الإعلام والرأي العام لا يزال نوعاً ما متأثراً بالدعاية المذكورة.

بل قامت صداقة فكرية سياسية مع قادة التنظيم الجديد وهم الاخوة: بابكر كرار، ميرغني النصري، عبد الله محمد أحمد، وعبد الله زكريا. كان هؤلاء مؤسسون للحركة الإسلامية في الوسط الطلابي ولكن عندما وقع الانشقاق انحاز إليهم عدد قليل من القاعدة الطلابية.

ومن الأحداث الهامة في السياسة السودانية حادث أول مارس ١٩٥٤ م. هذا الحادث انقسم حوله الرأي العام السوداني واهتز له الوسط الطلابي. خلاصته أن حكومة الحزب الوطني الاتحادي أعدت لافتتاح البرلمان السوداني في أول مارس ١٩٥٤ م وانفردت بالتحضير للمناسبة مما أشعر الاستقلاليين بقيادة حزب الأمة أن المناسبة ستركز على الدعاية لفكرة الاتحاد. لذلك رأوا أن يكون لهم حضور شعبي وأن يقابلوا اللواء محمد نجيب القادم من مصر لحضور افتتاح البرلمان السوداني مقابلة جماهيرية ترحب به وتسمعه صوت الاستقلاليين. واحتشد المستقبلون على طريق المطار ولكن موكب الرئيس اللواء محمد نجيب سير به في اتجاه آخر. فقرر قادة موكب حزب الأمة أن يسيروا إلى القصر حيث يقيم اللواء محمد نجيب لإسماعه صوتهم. ولكن الشرطة حالت دون وصولهم فوقع صدامٌ دامٍ مات فيه ٢٧ شخصاً.

وصفت دعاية الحزب الوطني الاتحادي، الحزب الحاكم، حادث أول مارس بأنه تواطؤ قام به حزب الأمة لإحداث انهيار دستوري في البلاد، وإلغاء الدستور المؤقت ووضع السلطات في يد الحاكم العام البريطاني. هذه الاتهامات لم تثبت بل ثبت عكسها من وقائع محاكمة المشتركين في حادث أول مارس ومن وقائع التاريخ ومن نصوص مذكرات اللواء محمد نجيب نفسه التي نشرت في كتاب ومسلسلة في الصحف.

ولكن الأمر بعيد الحادث مباشرة كان مختلفاً، فسمم الحادث الجو السياسي السوداني.

وكان غالبية الطلبة في جامعة الخرطوم يرجحون تواطؤ حزب الأمة، فالتهبت المنازعات والمناقشات والمشاجرات. في هذا الجو المشحون بالنزاع والمرارة غادرت جامعة الخرطوم بعد أن جلست لامتحان الدخول لأكسفورد بإشراف المستر ساندون عميد كلية العلوم بجامعة الخرطوم).

***

ومثلما كان السيد الصادق يكمل اطلاعه على علوم العربية والفقه، فقد بدأ في ذلك الوقت اطلاعه الممنهج على الشيوعية التي كانت محظورة يومها في السودان بأمر سلطات الاحتلال، ونجد في خطاب منه لأخيه الأصغر عصام الدين في ١٠/ ٩/ ١٩٥٣ وكان عصام فيما يبدو حينها مرافقاً لوالدتهم في رحلة علاج بأوربا، والصادق كان في كلية الخرطوم الجامعية كما جاء برأس الخطاب، وطلب من عصام أن يرسل له كتباً حول الشيوعية قائلا: (لقد سألتني إن كنت أودك تشتري لي أي كتب؟ فجوابي هو نعم أريد كتباً عن الشيوعية وأن تكون كتب مناصرين ومعارضين) ذاكراً أن هذه الكتب لا توجد بالسودان ويمنع دخولها بصفة رسمية، ثم نور عصاماً بالأخبار السياسية قائلاً إن بالسياسة ركود يحركه النشاط للاستعداد للانتخابات التي أخرت إلى يوم ١٢/ ١٢.

وفي أبريل ١٩٥٤م اتجه الصادق نحو المملكة المتحدة، كان بصحبته عميه يحي وأحمد، ومع أنه أصغرهم سناً فقد قال لهم الإمام عبد الرحمن وهو يودعهم: إذا كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم، الصادق يكون أميركم في غربتكم، وفقكم الله.

ذهب الصادق إلى العالم الأول وهو في عمر صغير نسبياً، وسوف نسرد ما كتبه بيده حول تلك التجربة بعد ثلاثة عقود منها، ولكن الشاهد على أنه ظنها صدمة حضارية كبرى أنه لاحقاً حينما صار أباً كان من ضمن محاولاته اتقاء الصدمات لأبنائه وبناته يمنع الذهاب للدراسة الجامعية في أوربا والغرب خوفاً من تلك الصدمة الحضارية المتوقعة، ويقول إن الدراسة في الغرب مفيدة ولكن للواحد والواحدة وهو ناضج في الدراسات العليا وليس غضاً لم يقف فوق أرضه بعد.

في كلية القديس يوحنا (١٩٥٤- ١٩٥٧م):

ألقى السيد الصادق المهدي محاضرة في مارس ١٩٨٣م كانت بدعوة من رئيس اتحاد طلاب جامعة أكسفورد للتحدث إليهم في دار الاتحاد عن العالم الإسلامي في السياسة الدولية. وبعدها دون مذكراته في أوكسفرد وسنورد ما كتبه حينها في الصفحات التالية التي تشكل مذكراته المفصلة عن تلك الفترة[1].

(١) اقتطعت الجزء من المذكرات الذي غطي فترة الدراسة في كلية فيكتوريا وكلية الخرطوم الجامعية وأوردتهما أعلاه حفاظا على التسلسل التاريخي للأحداث

وصف السيد الصادق دعوته للمحاضرة من قبل اتحاد طلاب جامعة أوكسفرد ثم دلف إلى المذكرات:

(اهتممت بالدعوة لأن الداعي هو نور الدين هلالي طالب من سيريلانكا وهو أول مسلم ينتخب لرئاسة الاتحاد. ورئاسة الاتحاد منصب هام يتنافس عليه الطلبة البريطانيون تنافساً حاداً لأنه عتبة هامة في سلم الصعود للحياة العامة في بريطانيا.

وسمحت لي الظروف فلبيت الدعوة آملاً أن يجد رئيس الاتحاد المسلم فرصة عبر محاضرتي لعرض بعض فكر أمته على زملائه الذين قدموه على منافسيه من بني جلدتهم ودينهم، محققين درجة عالية من التسامح، ومعبرين عما صار ملموساً في أوساط الرأي العام الأوربي والأمريكي من وعي أكبر بحجم الأمة الإسلامية، واهتمام أكثر بالقضايا العربية. وهذه ظواهر تعددت الشواهد عليها فقبل أسبوعين [1] عقد اتحاد طلاب جامعة أكسفورد مناظرة حاشدة لمناقشة مشروع قرار نصه: أن هذا المجلس يؤيد قيام دولة للشعب الفلسطيني في أرض فلسطين. وبعد مناظرة حادة أجيز مشروع القرار بأغلبية ثلثي الحاضرين.

وأثارت تلك الدعوة في نفسي ذكريات سنوات قضيتها طالباً في جامعة أكسفورد، ذكريات وجدتني أسردها في حديث ودي مع الأخ الصديق فؤاد مطر فطلب مني ملحاً أن أسجلها. وفي يوم ١٨ مارس ١٩٨٣ م وجدتني في رحلة طويلة مملة إلى إسلام آباد في باكستان للاشتراك في مؤتمر عن الاقتصاد الإسلامي فأمسكت بالقلم لأقطع بالكتابة ملل ساعات طوال فأملت الذاكرة على البنان فسجل هذه القصة مصحوبة بتحليلات توضح بعض وقائعها.

الحياة العلمية

يقوم النظام التعليمي في أكسفورد على طريقة فريدة. فالطالب عندما يلتحق بالدراسة يلتحق بإحدى الكليات وهي عديدة ومتفاوتة في حجمها وتاريخ نشأتها. والكلية هي التي تقبل الطالب وتتأكد من مؤهلاته وتشرف على كل شئونه المعاشية والعلاجية وتنظم له السكن في غرفها. وعندما يلتحق الطالب بإحدى الكليات فإنه يصبح تلقائياً

(١) عام ١٩٨٣م

عضواً في الجامعة. فالجامعة تشبه اتحاداً فدرالياً بين الكليات.

وتقوم الجامعة بالمهام الآتية:

- إعداد المحاضرات في مدرجات كبيرة ليحضرها الطلبة من مختلف الكليات حسب تخصصاتهم.
- إعداد المكتبات لكل المراجع الدراسية وفي كل المواد.
- إعداد المعامل لكل المواد العلمية.
- والجامعة هي التي تضع الامتحانات على جميع المستويات وهي التي تصححها وتمنح الشهادات العلمية.

وبالإضافة للتعليم الذي يناله الطالب في مستوى الجامعة فإن لكل كلية أساتذة مقيمون بها. وهؤلاء الأساتذة يلقون دروساً على طلبة الكلية في نطاق حلقات صغيرة لا يزيد عدد حاضريها عن خمسة طلبة. هذه الحلقات مصنفة حسب تخصصات الطلبة، وتجري مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع. وأسلوب التدريس في هذه الحلقات يشبه حلقة النقاش إذ يكلف الطالب بكتابة مقال في موضوع دراسته ويناقشه الأستاذ في مقاله هذا. لعل هذا النظام قد استمر منذ أيام النشأة الأولى لكليات جامعة أكسفورد، لأنه يشبه التلقي القديم بين الشيخ وطلابه، التلقي المعروف في تراثنا الإسلامي. والراجح أن يكون هذا النظام قد انتقل إلى أوربا عن طريق الأندلس وحفظته مؤسسات التعليم العريقة.

وكليات أكسفورد تفاخر بقدمها، وكلما كانت الكلية أشبه بالمتحف من حيث مظهرها الأثري كلما عدت ممتازة وأحاطت بها هالة الفضل. هذا التفاخر بالمتحفية جلب كثيراً من النوادر والملح لأكسفورد وكلياتها. نوادر وملح روجها الزوار والسواح والطلبة خاصة الأمريكان- فالأمريكان ينظرون إلى القديم الأوربي بمشاعر مختلطة فيهزأون به لمتحفيته في عصر التقدم التقني، ويغيرون منه لعراقته وأصالته.

والنوادر والملح التي كان يروجها الأمريكان وغيرهم كثيرة جداً كنا نتسلى بها ومنها مثلاً أن عميد كلية باليول (كلية عريقة) قال: «أنا عميد باليول. المعرفة هي ما أعرف. ما لست أعرف ليس معرفة».

عندما نشأت كليات أكسفورد كانت المعرفة هي علم اللاهوت، لذلك كانت دراسة اللاهوت هي أم الدراسات، وكان اللاهوت هو هم الأساتذة والطلاب، وكانت الكليات تسمى بأسماء القديسين في أغلب الحالات. وتعبيراً عن هذه الحقيقة خصصت الكليات أهم مبانيها لإقامة كنيسة تبارت الكليات في تزيينها وتجميلها ووسعتها ووضعتها في الصدارة. هذه الحالة صارت الآن تاريخاً. فالكنائس لم تعد حاشدة بالمصلين وانصرف الطلبة عن النشاط الكنسي انصرافاً كبيراً في أثناء فترة دراستنا. ولكي يجد رجال الكنيسة نشاطاً بديلاً فإنهم ركزوا على الأنشطة الخيرية كمساعدة المحتاجين والمعوقين وتنظيم حملات الإغاثة للمناطق المنكوبة مثل جمعية أكسفام OXFAM وهي جمعية لإغاثة المنكوبين خاصة منكوبي المجاعات مركزها في أكسفورد. والكنيسة على نطاق القطر البريطاني تواجه مشكلة ماذا تفعل بهذه الكنائس التي بنيت في زمان كان يرتاد الكنيسة فيه ٨٠٪ من الناس فهبطت النسبة حتى صارت ٥٪؟

لقد انصرف رجال الكنيسة أنفسهم فوجهوا طاقاتهم نحو الغوث الاجتماعي في بريطانيا وخارجها ونحو التبشير في أفريقيا، وحتى هناك خلطوا التبشير بالخدمات الاجتماعية خلطاً.

أما المباني فأمرها محل خلاف فاستمرارها خالية خاوية غير ممكن والتصرف فيها تجارياً غير مقبول. وفي هذه الأيام (أي الثمانينات) ثار خلاف كبير حول بيع كنيسة لجماعة من السيخ ليتخذوها معبداً.

هناك ملاحظات هامة حول التعليم في أكسفورد:

الملاحظة الأولى: التعليم موجه نحو فتح الذهن وتدريبه دون ربط بين التعليم وما يجلب من نفع. لذلك يوجد اهتمام كبير بالثقافة القديمة ودراسة تراث اليونان والرومان، فطلبة التراث الكلاسيكي هذا محل التفضيل والامتياز. والتصور الذي يطبع النظرة التعليمية في أكسفورد هو أن الذي يدرس التراث القديم هذا أو العلوم الإنسانية عامة يستطيع بما نال من تدريب ذهني أن يفوق الآخرين في مجال الحكم على الأمور والإدارة والقيادة وحسن الاختيار.

هذه هي النظرة «اللبرالية» للتعليم، وقد لونت التعليم في بريطانيا كله وإن كان لونها

في أكسفورد وكامبردج أكثر وضوحاً. وهي النظرة التي غرسها الإنجليز في التعليم في مستعمراتهم، فأورثتنا تفضيل الدراسات الإنسانية والأكاديمية، وعدم الاهتمام بربط التعليم بحاجة المجتمع، والتقليل من أهمية المسائل الفنية والتقنية في التعليم، على نحو ما يحدث في أمريكا وألمانيا واليابان وبصورة أكثر تركيزاً في الاتحاد السوفيتي.

والملاحظة الثانية: هي أن الطالب في أكسفورد يمنح حرية كبيرة جداً، ولا يطالب إلا باجتياز امتحانين الأول في السنة الأولى والثاني في السنة الأخيرة. وما بين هذين الامتحانين يكاد الطالب أن يكون حراً يفعل بوقته ما يشاء، فلا يُلزم بحضور المحاضرات، ولا يقع عليه إشراف أكاديمي مباشر إلا عن طريق حلقات الدراسة الأسبوعية التي ذكرت. وحتى هذا الإشراف فإنه فضفاض لأن الأستاذ يوجه أن يجعل العلاقة في هذه الحلقات أشبه بالزمالة والحوار منها بالترشيد والتوجيه.

لهذه الحرية سببان:

الأول: إن طلبة أكسفورد هم مادة الحكم والإدارة في بريطانيا، وهم أبناء الطبقة الحاكمة وينالون تربية صارمة جداً شبه عسكرية في المدارس الثانوية، حتى إذا اجتازوها بنجاح دخلوا الجامعة حيث الانفراج.

الثاني: الطالب الجامعي عندهم أكثر نضجاً من الطالب الجامعي عندنا لأنه يمضي عامين دراسيين بعد الشهادة الثانوية. وهذا طبعاً جديد علينا لأن الدراسة الجامعية عندنا تبدأ مباشرة بعد الشهادة الثانوية.

أنا شخصياً عانيت كثيراً من هذه الحقيقة لأنني التحقت بأكسفورد في سن مبكرة نسبيا (١٧.٥ عاما). ولو أتيحت لي الفرصة لأعيد الكرة من جديد لاخترت الالتحاق بأكسفورد في سن أكبر وبعد نضج أكثر. والتجارب تؤيد هذا الاقتناع.

فالذين التحقوا بكليات أكسفورد وكامبردج من السودانيين بعد الثانوي مباشرة تاهوا في الحرية الأكاديمية المتاحة، وأخفق في الدراسة أكثر من ٩٠٪ منهم. بينما الذين التحقوا بهذه الكليات بعد جامعة الخرطوم استفادوا فائدة كبيرة ونجحوا كلهم نجاحاً باهراً، لم تضرهم الحرية الأكاديمية ولم تذهب برشدهم الصدمة الحضارية!!

إن الطلبة أمثالنا يواجهون تحدياً كبيراً لأن أساتذتهم وزملاءهم يتحدثون الإنجليزية

لغة أصلية بينما نحن تعلمناها واكتسبناها اكتساباً. ورغم ما في هذه الحقيقة من صعوبة فإنها ليست قاهرة بل يستطيع الشخص بسرعة أن يفهم ما يقرأ وما يقال وأن يعبر عنه بلغة مفهومة. لكن التحديات التي تشل الطالب الأجنبي تكمن في اختلاف الظروف التعليمية التي ذكرناها وفي الصدمات الحضارية.

فالحياة الاجتماعية التي يدخلها الوافد للتعليم تقوم على اعتبار أن الطلبة يتقبلون الأنشطة الاجتماعية الأوربية وينخرطون فيها. فمنذ الأيام الأولى يوجه الأساتذة لك الدعوة لحفل تعارف. حفل يقدمون فيه المشروبات الروحية. والافتراض القائم هو أن الجميع يشربون ويفرحون بهذا اللقاء. فإن امتنع أحد عن مشاركة الجماعة صار شاذاً وصارت القلة التي لا تشرب معزولة.

كذلك تنظم كل كلية حفلاً راقصاً سنوياً ويتوقع من الجميع المشاركة فيه. وهذا يفترض أن يكون لكل طالب صديقة ولكل طالبة صديق وقيام مثل هذه العلاقات هو النمط المعتاد والأمثل وتخلفه هو الموصوف بالشذوذ والعلة!!

إن هذه المسائل: شرب الخمر، والرقص مخاصرة، والمزاوجة بلا زواج أمور نبتت في البيئة الأوروبية نبتاً متدرجاً حتى صارت عادية، وصارت مقياساً للتحضر. ولكن الشاب القادم من الشرق المسلم يواجهها أنماطاً غريبة عليه، فإن قبلها وانخرط فيها فإنها تكلفه ضريبة خلقية ونفسية ثقيلة على نفسه، وإن رفضها تفرض عليه عزلة اجتماعية. ولا سبيل لمواجهة هذا الموقف بسلام إلا في إحدى حالتين:

الأولى: أن يحضر الطالب إلى هذا المجتمع بعد نضجه عقلياً وعاطفياً، وحبذا أن يكون قد تزوج واصطحب معه زوجه.

الثانية: أن يكون عدد المبعوثين كبيراً واستعدادهم قويماً فيقيمون مجتمعاً مصغراً يفرضون عليه قيمهم ومثلهم، ويحتمون به من أخطار المجتمع المحيط بهم.. هذا ما يفعله الآن كثير من الطلاب المبعوثين في الغرب. وقد شهدت صوراً منه في زيارتي الأخيرة لكاليفورنيا[1] حيث أقام عدد من الطلبة المسلمين جمعيات إسلامية قوية صنعت لهم مجتمعات صغرى مطهرة. فإن لم يحدث هذا وحضر المبعوثون في سن

(١) أي زيارته لها في أوائل الثمانينات، قبل نحو ثلاثة عقود من الزمان اليوم

مبكرة فإن غالبيتهم يسقطون صرعى مغريات تهزهم هزاً:

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء.

إن أوربا تمر بمرحلة ترف وصلتها بعد عناء شديد، عناء الثورة الصناعية والفتوحات الاستعمارية، وهذا الترف يمر بالحضارات بعد نضجها واكتمالها واتخاذها زخرفها وزينتها، كما أوضح ابن خلدون في مقدمته الشهيرة.

ونحن نفد إلى أوربا للدراسة فيؤثر علينا ترفها ونقتبس من عاداتها وممارساتها ما لا يناسبنا، ولا يناسب ديننا، ولا يناسب واقعنا المضروب المغلوب الذي لا سبيل لتغييره إلا بالحزم والعزم والاخشوشان.

كل الحضارات في ساعة أفولها غلب عليها الترف: حدث هذا للإمبراطورية الرومانية، وحدث قبلها لليونان وحدث للدولة الإسلامية. وكل الحضارات في بداية مجدها استقامت وعافت اللذة وتركت التنعم: حدث هذا لبريطانيا، وحدث بعدها للاتحاد السوفيتي والصين واليابان.

إن أكبر خسارة يخسرها الشباب الغض الوافد من الشرق هو تخلقه- بوسائل شعورية ولا شعورية- بأخلاق الترف، بينما يجبرهم واقعهم الحضاري أن يشمروا عن ساعد الجد والاجتهاد.

أعود لأواصل الحديث عن التعليم في أكسفورد.

وأقول: إن نظام الحلقات الدراسية الذي وصفناه نظام جيد جداً إذا كان الطالب ناضجاً. لأنه يشجع الطالب على الإنشاء والتأليف والتفكير المستقل، ويقيم العلاقة بين الأستاذ والطالب على الحوار والأخذ والعطاء لا على التلقي من عل كما هو الحال في محاضرات المدرج. ولكنه نظام مكلف جداً، لا تستطيعه إلا مؤسسات تعليمية غنية. وأكسفورد جامعة غنية كانت تمنحها الحكومة البريطانية دعماً مالياً كبيراً. وكليات أكسفورد أيضاً غنية لأن خريجيها في الماضي وهبوها أراضٍ وأموالاً، فاشترت الكليات أسهماً في شركات، وصار لها دخل كبير من مالها المستثمر.

كثير من النواب البريطانيين وخاصة في اليسار ينتقدون الدعم المالي لأكسفورد وكامبردج لكيلا يصرف المال في ترسيخ الفوارق الطبقية، ولكن نقدهم لم يجد أذناً

صاغية، والحقيقة هو أن النظام البريطاني حافل بالأساليب الخفية التي تحافظ على الرأسمالية وعلى النظام الطبقي، فالقوانين المالية في بريطانيا تسمح للشركات احتساب سعر الفائدة جزءاً من مصاريفها واستنزاله من حساب الضرائب. والنظام التعليمي ما زال يرسخ الفوارق، والخريجون الذين يتسلمون القيادة التنفيذية والإدارية في البلاد يقيمون شبكة من العلاقات يسندون بعضهم بعضاً، ويساهمون بكل الطرق في الإبقاء على النظام التعليمي كما هو.

هذه الأساليب جعلت بريطانيا من أكثر البلاد الأوروبية حفاظاً على الطبقية وإحساساً بها. لقد حافظ المجتمع البريطاني على تقاليده الموروثة لأن البلاد لم تتعرض لغزو خارجي منذ ألف عام. كما أن الطبقات العليا في بريطانيا حاولت باستمرار استيعاب الجديد بدرجة مكنتها من المحافظة على مكانتها، وحالت دون إغضاب القوى الاجتماعية الجديدة غضباً يدفع بها إلى الثورة.

والفوارق الطبقية في بريطانيا تظهر في كل شيء: في منطقة السكن، في الملبس، في المركب، وفي لهجة الحديث. فلهجة الصفوة في بريطانيا لهجة واضحة تسمى اكسبردج. (نحتاً من أكسفورد وكامبردج) وهي لهجة مجرورة العبارات، يخيل إليك من تنميقها أنها مصطنعة. وقد ضحك عليها وأضحك الناس الأديب البريطاني الساخر برنادشو في روايته الشهيرة: «سيدتي الجميلة».

والنهج التعليمي في أكسفورد موجه بصورة شعورية ولا شعورية للصفوة البريطانية. والذين يفدون للتعليم في أكسفورد يجدون أنهم قد أطلوا على المجتمع البريطاني من زاوية أكسفورد وتلونت نظرتهم للحياة في بريطانيا بلونها.

لقد أتقن الإنجليز، عبر قرون من التجربة في حكم الشعوب، أتقنوا إظهار ما يتخذون من موقف ذاتي مظهر الموضوعية المجردة. فالأستاذ يتحلى بنوع من الحياء والتواضع والتخلي عن حماسة المتحزب، فلا يرقى إليك شك في عفته العلمية وموضوعية مواقفه. والكتب المرجعية كتب مبوبة تبويباً علمياً ومنقحة ومحققة بدقة تؤكد لك إن مؤلفها لا ينطق عن الهوى.

لذلك كانت دهشتي عظيمة عندما طالعت كتاباً في التاريخ الدستوري لبريطانيا رجعت إليه لأنه مقرر علينا في مادة العلوم السياسية، فوجدت في الكتاب إشارة لمشكلة

في التاريخ الدستوري متعلقة بأحداث السودان. وأثناء سرد المشكلة تعرض المؤلف واسمه دافيد ليندسي [1] لسيرة الإمام المهدي. فقال عنه: «لقد كان محمد أحمد (المهدي) موظفاً في الإدارة التركية. ثم صار نخاساً (أي تاجر رقيق)» .. وهكذا استمر يهرف بما لا يعرف!!

ومن أبجديات تاريخ السودان أن المهدي شخصية عرفها الناس تماماً، فهو لم يشأ أن يأكل مع الطلبة عندما كانوا في مدرسة الشيخ محمد الخير لأن المدرسة كانت تتلقى إعانة من الإدارة التركية، والمهدي كان يعتبر أموال الحكومة مجلوبة بالباطل وقصة رفضه الطعام وأسباب ذلك معروفة. كذلك دخل مرة مع صديق له في تجارة ولكنه باع نصيبه من البضاعة قبل وصول منطقة بعيدة للاستفادة بفرق السعر وكانت حجته أن الدنيا لا تستحق كل هذا التعب والعناء! أين هذا من أن يشتغل موظفاً بتلك الحكومة وأن يشتغل بأكثر أنواع التجارة تعباً وعناءً؟

إن الذي قرأت في كتاب المستر ليندسي نزع من نفسي الاحترام الذي كنت أعامل به هذه الكتب، وشرعت أتهمها وأطالعها بشك نما على مر الأيام، حتى صرت اعتبر موضوعيتها حجاباً يستر في طيه نظرات ذاتية منحازة. ونما شكي حتى في موضوعية كتب العلوم الطبيعية التي كنت قد تعاملت معها في بداية حياتي الجامعية، واستقر في ذهني أنها نقلت إلينا أمرين خاليين من الموضوعية:

الأول: إن نشأة العلوم وتطورها في أوربا كانت في وسط معاد للدين مما جعل مقدمات الكتب العلمية تفترض تناقض الدين والعلم وتعتبر الدين، قياساً على الكنيسة، مرحلة طفولة تجاوزها الإنسان.

الثاني: تترك مقدمات كتب العلوم الطبيعية والمحاضرات الأولى انطباعاً في نفس القارئ والمستمع بأن النظرة العلمية والاكتشافات العلمية هي هبة أوروبا للإنسان ليس لها في ذلك شريك.

وهذان انطباعان خاليان من الصحة: تناقض الدين والعلم ظاهرة خاصة بظروف أوروبا. ففي الإسلام لا يقوم تناقض بين الدين والعلم إذ يقوم الدين على وحي الله،

(1) David Lindsay Keir ,The constitutional history of modern Britain, 1485-1937, published 1948

وتقوم العلوم الطبيعية على سنن الله في الكون، والوحي حث الناس على استخدام كل ملكاتهم. لذلك استقرأ ابن طفيل حقائق الغيب من كتاب الطبيعة في كتابه حي بن يقظان. وألمح ابن رشد على التقاء حقائق الوحي ونتائج الفلسفة في كتابه: فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال.

أما أن يكون العلم والتكنولوجيا هما هبة أوروبا وحدها للإنسان، فإن الراجح تاريخياً أن أوروبا تتلمذت على الحضارة الإسلامية في هذا المجال، ولمزيد من بيان هذه الحقيقة اقرأ محاضرتي للجامعة الإسلامية في أمدرمان في عام ١٩٧٩ م[1].

ولولا خطأ المؤلف لندسي في مسألة بسيطة ظهرت لي فأيقظتني وبذرت في نفسي شكاً مفيداً، لطال انخداعي بحجاب الموضوعية، فرب ضارة نافعة!

ومهما كان نقدي لمحتوى بعض الكتب والنظريات فإن المنهاج الذي أتقنه الفكر الأوروبي الحديث في طرح المسائل وترتيب الدلائل والاستقراء والاستنتاج منهاج مفيد جداً.

لقد مررت بامتحان السنة الأولى في الجامعة فانصرفت عن الجهد الأكاديمي لفترة طويلة، وانشغلتُ بأنشطة سأوضحها بعد حين، ولم أعاود الاهتمام بالمسائل الأكاديمية إلا في العام الثالث والأخير وفي النصف الثاني منه حيث دخلت في استذكار شديد، وبذلت جهداً كبيراً حتى انطبعت أحلامي نفسها ساعة المنام بما كنت أطالع!

وجلست للامتحان النهائي في مارس ١٩٥٧ م، ووفقت في نيل شهادة جامعية بدرجة الشرف في الاقتصاد والسياسة والفلسفة. وعدت إلى بلادي معتبراً أن المرحلة الأولى لتعليمي الجامعي قد انتهت وسأواصل بدراسة الزراعة.. ولكن حالت دون ذلك ظروف: تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

نظام أكسفورد يمنح الخريج بدرجة شرف بعد عامين من تخرجه الماجستير. الافتراض القائم هنا هو أن الخريج الجامعي بتلك الدرجة سوف يواصل نموه العقلي

(١) يقصد الكاتب محاضرته: العلمانية الجذور والأبعاد، وقد طورها بعد ذلك في ورقة «فك الاشتباك الديني العلماني» وهي منشورة في كتابه نحو ثورة ثقافية، من منشورات مكتبة الشروق بالقاهرة في ٢٠٠٦م

والعلمي بعد تخرجه بحيث يصبح تلقائياً أهلاً للماجستير بعد عامين.

والفكرة الكامنة وراء هذا الافتراض هي أن الجامعة أعطت الطالب تدريباً وعلمته كيف يفكر ويبحث ويستدل ويستخدم المراجع وأنه بهذه الوسائل سيكبر علمياً وعقلياً يوماً بعد يوم.

الحياة الاجتماعية

من أهم التقاليد التربوية البريطانية الحرص على كل أنواع الرياضة. والإنجليز يفخرون باهتمامهم بالرياضة وفي هذا المجال قال قائلهم: كسبنا الحرب العظمى في ميادين ايتون (مدرسة ثانوية عريقة) والمعنى المقصود هنا هو أن ميادين الرياضة تروض الأجسام، وتدرب على التعاون الجماعي، وتربي روحاً رياضية، بحيث لا تصبح الهزيمة فاجعة لصاحبها، بل يمنعها بروح رياضية ويستعد لنصر آتٍ بعد بذل جهد كبير.

وفي أوكسفورد يقوم شأن كبير للرياضة وتنظيم منافسات في كل الألعاب الرياضية. وكما يقوم تنافس على مستوى أعلى بين الجامعات البريطانية، وفي هذه الصدد فإن أكثر المنافسات أهمية هي المنافسة بين أكسفورد وكامبردج. والتنافس بينهما كان ولا زال يشغل حيزاً كبيراً، ويوفر مادة للدعابة. والحدث الذي يجسد هذا التنافس مرة كل عام هو سباق القوارب بينهما.. سباق يستعد له الطرفان استعداداً هائلاً ويشهده جمهور المتفرجين من الجامعتين في حماس كأنهم يشهدون حرباً مصيرية.

والطلبة الإنجليز عامة يعدون الرياضة من الضروريات، ويشترون ملابسها ومعداتها باهتمام بالغ.

وفي أكسفورد يحتل الوسط الرياضي مكانة عليا. والرياضيون مصنفون بمقدار ما يحسنون، ويلبسون ملابس خاصة تدل على مستواهم. فمن كان لون ردائه أزرق فقد بلغ الرتبة العليا في الرياضة وهي رتبة تشفع له في الدراسة وفي تصحيح أوراق الامتحان، وتؤمن له مكانة اجتماعية مرموقة في الوسط الجامعي.

لقد شاركت في عدد من الألعاب الرياضية أثناء دراستي في أكسفورد ووصلت في التنس درجة تمثيل كليتي في التنافس بين الكليات، ولعبت كرة القدم والكريكت والقفز العالي مرات قليلة.

إن للأزياء دوراً هاماً في حياة الطالب في أكسفورد. فعلى الطالب أن يلبس عباءة قصيرة ويغطي رأسه عندما يحضر المحاضرات، وحلقات الدراسة، والعشاء، والامتحانات.

وعندما يتخرج الطالب عليه أن يلبس عباءة سوداء كبيرة ويغطي رأسه أيضاً. هذا الشكل -العباءة- ليس أصيلاً في أوروبا، حيث الأزياء ألصق بالجسم، وملتفة حوله دائماً اتقاء البرودة. والراجح أن هذا الزي- العباءة- وافد لأوربا مع غيره من الآثار .. وافد من الحضارة العربية عبر الأندلس.

ويقيم الطلبة عدداً لا حصر له من الجمعيات ذات الأغراض الاجتماعية فبعضها للتمثيل، وللفن، ولـلأدب، ولممارسة الهوايات، وبعضها للعمل الخيري وإغاثة المنكوبين وهكذا.

ولعل أهم نشاط اجتماعي في أكسفورد هو حفلات الاستقبال التي ينظمها الأساتذة والطلبة والجمعيات، وفيها يتم التعارف بين الطلبة من الكليات المختلفة، وفيها تبدأ الصداقات، وفيها تتبادل الآراء، وتؤلف الإشاعات، وتصاغ النوادر والنكات. والإنجليز من أكثر الشعوب اهتماماً بالنكتة، يجهد الواحد منهم نفسه حتى العناء ليؤلف نكتة، ويتصيد المناسبات الاجتماعية لتبادل النكتة.

لقد صنعت حفلات الاستقبال مجتمع أكسفورد، وهي التي أعطته لونه وطعمه ورائحته.

وفي أكسفورد توجد صحافة طلابية قوية، فالاتحاد يصدر صحيفة، ولكثير من الجمعيات الأدبية والثقافية والفنية صحفها. وهي ليست صحافة حائطية كما هو الحال مثلاً عندنا في بعض جامعاتنا، بل صحافة سيارة مطبوعة توزع وأحياناً تباع للقراء.

ويلعب النهر دوراً هاماً في الحياة الاجتماعية في أكسفورد، إذ تؤجر فيه قوارب يؤجرها الطلبة وعليها يمضون معظم أوقات الفراغ في الصيف. بل تنظم على ظهر القوارب دعوات واحتفالات واجتماعات أحياناً.

والوسط الطلابي في أكسفورد- كما هو معروف- مختلط. وفي زماننا كان للرجال غالبية الكليات وللنساء بعض الكليات (هذا التقليد تعدل الآن وصارت بعض الكليات

مختلطة). ولكن النساء كن يعلبن دوراً ثانوياً في الحياة الاجتماعية. وكان التوازن العددي بين الرجال والنساء من الطلبة مختلاً، وتقاليدهم الاجتماعية لا تشجع قيام صداقات بين الأولاد والبنات.. فكان الطلبة يلجئون لأوساط نسوية أخرى للعثور على زميلات لهم كالممرضات والطالبات اللائي يرسلن لمعاهد اللغة الإنجليزية في أكسفورد.

ورغم أن قيام صداقات من هذا النوع أمر عادي في الوسط الأوربي، فإن لوائح الكليات موروثة من زمان ماضٍ. زمان لا يرضى عن قيام علاقات بين الأولاد والبنات قبل الزواج، لذلك تمنع اللوائح وجود الأولاد في كليات البنات ووجود البنات في كليات الأولاد بعد ساعة معينة من اليوم. وتغلق اللوائح أبواب الكليات في ساعة معينة من الليل لكيلا يتأخر الطلبة والطالبات في العودة إلى غرفهم. والزائر لأكسفورد يشاهد أن حيطان الكليات مغطاة بالأسلاك الشائكة، وبالزجاج المكسور، وذلك لمنع الطلبة والطالبات العائدين بعد إغلاق أبواب كلياتهم من تسور الحيطان. رغم هذه الاحتياطات فإن الطالبات والطلبة يجدون ثغرات في الحيطان يستخدمونها للتسلل ليلاً- ومن لم يسعفه حظه يجرح جسمه الشوك الحديدي والزجاج تجريحاً.

لم يكن كل الطلبة منغمسين في هذا اللهو الاجتماعي، بل إن جزءاً كبيراً منهم محافظ بدرجة مدهشة.. مدهشة لأمثالنا نحن الذين نتصور أن الرجال والنساء في إنجلترا وفرنسا كلهم في حالة من الإباحية.. إباحية نتصورها مما نشاهد من متاجرة بالجنس وتلاعب به في الأفلام. هذه الصورة صادقة في حالات، ولكنها مجافية للحقيقة في حالات كثيرة.

وكما نتصور حالهم تصوراً وهمياً، فإن كثيراً منهم يتصورون حالنا أيضا تصوراً وهمياً رسخه في أنفسهم عن الشرق انتشار قصص ألف ليلة وليلة مترجمة ترجمة شيقة، وانتشار رباعيات عمر الخيام.. إن الذين أرادوا تصوير شخصية «العربي القبيح» في السبعينات، العربي الذي يبدد أموال العاملين في الغرب بما يفرض عليهم من أسعار عالية لنفطه ثم يصرفها في اللهو والمجون، وجدوا من قصص ألف ليلة وليلة أقوى تمهيد.

إن ما تنقله لنا أجهزة الإعلام عن حقيقة المجتمع الأوروبي ليس دقيقاً، وإن قسماً كبيراً من الطلبة والطالبات مستقيم بمقياس مجتمعهم للاستقامة. كان بعض هؤلاء

يناقش وينتقد أسلوب مجتمعنا ويقول: إما أن يسهل المجتمع الزواج بحيث يتزوج البالغون بمجرد البلوغ. وإما أن يفصل بين الأولاد والبنات فصلاً تاماً حتى الزواج، وإما أن يؤخر الزواج ويسمح بالاختلاط ويسمح بقيام علاقات بين الأولاد والبنات قبل الزواج. وكنا نقول إن الإسلام يسهل الزواج ولا يمنع الاختلاط إذا كان منضبطاً ولغرض ديني أو علمي جاد، ولكنه يحرم قيام علاقات بين الأولاد والبنات قبل الزواج.

والمشكلة العملية هي أن الظروف الاجتماعية قضت على تسهيل الزواج وفتحت مجال الاختلاط - في أوروبا على الأقل - فأفسحت للفساد إفساحاً.

وهذا الإشكال يعاني منه الوافدون إلى أوروبا وأمريكا معاناة حقيقية، وأذكر أن إمام جامع المركز الثقافي الإسلامي في عام ١٩٥٥ م ألقى علينا خطبة الجمعة ووجهها كلها لتأييد زواج المتعة! ولا أعتقد أنه أقنع الحاضرين بصحته. الحل هو أن يتزوج الأولاد مهما كانت السن مبكرة لأن الزواج يعصمهم من أشياء كثيرة.

شخصياً كدت أتزوج إنجليزية تدعى جين هوبرت، ولكن صرفت النظر عن ذلك للفجوة الحضارية والدينية التي لن يستطيع الزواج سدها.

أعود فأقول إن عدداً كبيراً من الطلبة الإنجليز والطالبات محافظ ومستقيم بمقياس مجتمعه للاستقامة. ولكن الجزء الماجن أكبر صوتاً وأكثر صخباً، وقد علا صخبه علواً كبيراً في فترة الستينات وهي فترة ترف عم أوروبا وأمريكا وفتن الشباب فتنة كبيرة حتى أطلق على الستينات عبارة: «الستينات الراقصة».

ومنذ الستينات كثرت مظاهر الخنفسة، وتجرأ الأولاد والبنات على رفض القيم الاجتماعية حتى صار للرفض أئمة وزعماء أمثال جيمس مانسون الزعيم الأمريكي.

وصار لكل شذوذ وغرابة رواج. وكثرت الطوائف الغريبة، أمثال طائفة جيمي جونز الزعيم الذي أقنع أتباعه بالانتحار الجماعي فانتحر ألف من الرجال والنساء جماعياً.

قديماً قال باسكال الفيلسوف الفرنسي «الإنسان محتاج للإيمان والحنان فإن لم يجد ما يشبع إيمانه وحنانه بحث عنهما في أي شكل مهما كان شاذاً».

لذلك التمس الأوروبيون والأمريكان الإيمان في أشكال شاذة، والتمسوا الحنان في حب مبالغ فيه للقطط والكلاب، والتمسوا القضاء على رتابة الحياة الآلية بالقمار،

والخمر، والمخدرات.

وفي زيارتي لأكسفورد في أوائل أبريل ١٩٨٣ م سألت رئيس اتحاد الطلبة للفترة الماضية، وهو إنجليزي كاثوليكي، عن اهتمامات الطلبة الاجتماعية الآن فقال لي أنه يلاحظ انصرافاً عن مزاج الستينات الراقصة وبحثاً عن اليقين، ويعتقد أن هذا البحث عن اليقين تسبب في زيادة شعبية الملة الكاثوليكية، وأنه شخصياً يعرف بعض زملائه من الطلبة يطمئنون لعقيدة أن الحق هو ما يسميه البابا حقاً وأن الباطل ما يسميه باطلاً!!

إن مدينة أكسفورد مدينة جامعية، ولكن حجم المدينة في أكسفورد أكبر من حجم المدينة في كامبردج، لذلك يعتقد بعض الناس أن عبارة مدينة جامعية تصدق أكثر في وصف كامبردج منها في وصف أكسفورد.

ولكن رغم حجم مدينة أكسفورد الكبير فإن المجتمع الجامعي بارز جداً ومميز تماماً، والنشاط الاجتماعي في جامعة أكسفورد متدفق تنوعاً وحيوية، ولكنني اعترف أنني عشت على هامش الحياة الاجتماعية في أكسفورد في موقف المشاهد أكثر من موقف المشارك.

الحياة السياسية

عندما وصلت إلى إنجلترا وجدت أن المبعوثين السودانيين، وغالبيتهم من موظفي الحكومة أو من خريجي الجامعة المبعوثين للتخصص، وجدتهم يقومون بنشاط اجتماعي وثقافي وسياسي كبير يقوده اتحاد الطلبة السودانيين للمملكة المتحدة وايرلندا. وظننت أن الحدة والمرارة التي اكتنفت النشاط الطلابي في جامعة الخرطوم- المشار إليه آنفا- ستلحق باتحاد الطلبة في إنجلترا أيضاً. ولكن لم أجد من ذلك شيئاً، بل وجدت استعداداً قومياً للتعاون بين كل الأطراف، حتى أن انتخابات الاتحاد لعام ١٩٥٥ م أتت بلجنة من اليمين واليسار والوسط، لجنة فيها طه بعشر، وحسن الترابي، ومكاوي خوجلي، ومرتضى أحمد إبراهيم، والصادق المهدي، ومحمد سعيد القدال وآخرين.

وبدا لي أن الناخبين صوتوا بموضوعية ونظرة قومية للمرشحين. وانتخبت اللجنة طه بعشر رئيساً، واندفعت في نشاط ثقافي هائل، وأعدت معرضاً سودانياً ناجحاً، واستطاعت أن تلعب دوراً هاماً في حركة تحول المثقفين السودانيين في اتجاه تأييد

استقلال السودان، فأبرقت الحكومة السودانية مطالبة بإعلان الاستقلال، وأقامت حفل استقبال كبير للسيد إسماعيل الأزهري رئيس الوزراء (رحمه الله) أثناء زيارته لبريطانيا، وطالبته صراحة باسم المبعوثين السودانيين جميعاً تأييد الاستقلال.

إن لفترة نشاطي في لجنة اتحاد الطلبة السودانيين بإنجلترا أهمية خاصة في حياتي السياسية، لأنها أقنعتني عملياً بجدوى التوجه القومي في السياسة السودانية، وغرست في نفسي منذ ذلك الحين فكرة المصالحة الوطنية في مسار السياسة السودانية.

وأثناء دراستي في بريطانيا زارنا وفد سوداني حكومي على رأسه المرحوم السيد عبد الله خليل رئيس الوزراء الذي خلف السيد أزهري في رئاسة الوزراء بعد انشقاق الحزب الوطني الاتحادي[1]. وكان السيد عبد الله خليل قليل الكلام ولكن على قلة كلامه لا يخلو من دعابة لطيفة. ذهب الساسة الحكوميون المذكورون لشراء بعض أغراضهم، وذهبنا معهم مرافقين، ودخلنا متجراً فطلبوا جوارب فأحضرت لهم وقيل لهم إن ثمن الجورب عشرة جنيهات، وكان هذا السعر عالياً جداً في تلك الأيام، فاستغرب السيد عبد الله خليل وقال: لماذا هذا السعر العالي؟! قال له البائع ما معناه لأنه آخر صيحة ***because it is the last issue*** *فقال عبد الله خليل: ماذا يجدي ذلك فإن اشتريته وذهبت به للسودان وتفاخرت به على المحجوب (يقصد السيد محمد أحمد محجوب وكان وزيراً للخارجية، ومشهوراً بالأناقة بحيث لا يجاريه أحد في نوع وثمن ملبوساته).. لكشف لي محجوب عن جوربه وقال هذه صيحة الغد أي إنتاج الغد* ***this is not yet issued!***[2]

(١) الحزب الوطني الاتحادي حزب نشأ وأجيز دستوره وتم التوقيع عليه في اجتماع بمنزل اللواء محمد نجيب بالقاهرة في ٢ نوفمبر ١٩٥٢م بعد أن كانت مشاورات تكوينه قد بدأت في الخرطوم منذ أغسطس ١٩٥٠. وهو عبارة عن تجميع لثمان مجموعات اتحادية: حزب الأشقاء بجناحيه (جناح إسماعيل الأزهري، وجناح محمد نور الدين) وحزب الاتحاديين، وحزب الجبهة الوطنية، وحزب وحدة وادي النيل، وحزب الأحرار الاتحاديين، ومؤتمر الخريجين العام، ومؤتمر السودان. أنظر لتفاصيل ذلك: فيصل عبد الرحمن علي طه الحركة السياسية السودانية والصراع المصري البريطاني بشأن السودان ١٩٣٦-١٩٥٣م دار الأمين- القاهرة- ١٩٩٨م. لاحقا انشق الحزب الوطني الاتحادي بخروج «حزب الشعب الديمقراطي» تحت رعاية السيد علي الميرغني ورئاسة السيد علي عبد الرحمن.

(٢) هذه الفقرة رواها الحبيب الإمام في كتابه (الفكاهة ليست عبثا).

الاتحاد في أوكسفرد

كل طالب يدخل أكسفورد يجد نفسه مشدوداً للانضمام لاتحاد طلاب جامعة أكسفورد، فانضممت إليه كغيري من الطلبة. وللاتحاد دار كبيرة فيها مطعم، وفيها مكتبة، وفيها تسهيلات كثيرة يستفيد منها أعضاؤه. ولكن أهم نشاط للاتحاد هو عقد المناظرات في موضوعات الساعة، حيث يتحدث جانبان: مؤيدون ومعارضون ثم يطرح الأمر في نهاية المناظرة على كل الحاضرين للتصويت ويعلن رئيس الجلسة فوز أو سقوط مشروع القرار موضوع المناظرة.

وهذا الأسلوب من النقاش يدرب الطلبة على ملكة الخطابة، ويتيح فرصة لإبراز مواهب المتحدثين، ويمنح تدريباً على أساليب المناظرة البرلمانية.

إن نشاط اتحاد طلبة جامعة أكسفورد تجسيد مصغر للبرلمان البريطاني نفسه، فرئيس الاتحاد أشبه برئيس الوزراء، وما يجري من تنافس وانتخاب وأساليب إدارة الجلسات كلها أصداء للنظام البرلماني البريطاني. والذين يبرزون في الاتحاد يصعدون على العتبة الأولى من عتبات الصعود في الحياة السياسية في البلاد.

لقد اشتركتُ في بعض مناظرات الاتحاد، ولكن بسرعة اتضح لي أنه نشاط لا يناسبني، فاهتمامات الاتحاد لا تطابق اهتماماتي.

جمعيات أخرى

انضممت إلى الجمعيات الآتية وركزت عليها وهي: الجمعية العربية، النادي الاشتراكي، جمعية آسيا وأفريقيا وجزر الهند الغربية.

أما الجمعية العربية فقد كانت تضم الطلبة العرب، وكانوا جماعة متحابة متعاونة، وصار تقليد الجمعية أن تختار سودانياً لرئاستها، فكان عمي يحيى المهدي رحمه الله رئيسها قبل دخولنا الجامعة، وصادف أن اختير معه صلاح الصرفي (من مصر) أميناً عاماً للجمعية، وكان من أعضاء الجمعية بعض العراقيين ذوي النزعة الفاشستية، وكان أحدهم يتشبه بهتلر في قص شعره وشاربه فاعترض على الانتخاب قائلاً إن السودانيين والمصريين ليسوا عرباً.

وأثار هذا الموضوع جدلاً كبيراً، ولكن الجمعية لم تعر هذا الرأي اهتماماً، بل مضت

في تقليدها فتولى رئاسة الجمعية بعد عمي يحي أخوه الأصغر أحمد، وتوليتها أيضاً أنا. وفي أيامنا استمر النقاش حول عروبة السودانيين، وأذكر أن أحدهم قال إن السودانيين يتحدثون لغة غير العربية، وسحنتهم زنجية فكيف يقال إنهم عرب؟ فقلت له ما ألزمه الحجة: إن السودانيين- الغالبية- يتحدثون العربية لغة أصلية، ومخارج حروفهم أصح من غيرهم. كذلك فإن حماستهم الإسلامية مضرب الأمثال. وعرب السودان هم الذين دفعهم علو الهمة فانتشروا في الأرض، وبانتشارهم أسلمت واستعربت جماهير كثيرة. أما اللون فإن الخضرة من ألوان العرب واستشهدت بالرجز العربي القديم:

انـــا الأخضـــر مـــن يعرفنـــي أخضـر الجلـدة مـن بيـت العـرب
مـــن يســـاجلني يســـاجل ماجـــداً يمـلأ الـدلو إلـى حـد الركـب

وقلت على أي حال فإن العرب عبروا بالإسلام والعروبة حدود الجزيرة، واختلطوا بشعوب الهلال الخصيب، والبربر، ووادي النيل، وأفريقيا، وآسيا تاركين أعظم أثر: أمة مسلمة لغتها العربية، ونبينا قال: ليست العربية بأم أحدكم ولا أبيه من تكلم العربية فهو عربي.

ولكن هذه المساجلات دفعت عدداً من السودانيين إلى القول: نحن لسنا عرباً نحن أفارقة. أفريقيا إقليم وليست قومية، وأفريقيتنا لا تنفي عروبتنا. نحن عرب صريحة أنسابنا إلى إسماعيل، صحيحة ألسنتنا بالضاد، أبينا ذلك أم رضينا، وأباه علينا بيضان أو حمران العرب أم رضوه!

لم تؤيد غالبية العراقيين ذلك الرأي الذي طعن في عروبة أهل السودان ومصر، بل ظل رأياً شاذاً تخلى عنه أصحابه أنفسهم بعد حين.

وجمعت بيني وبين عدد من الطلبة العراقيين عرى المودة والصداقة خاصة محمد سليمان حسن العالم الاقتصادي العراقي الذي كان يحضر للدكتوراه منفياً من العراق ونوري السعيد، والذي أعانني كثيراً في فهم الاقتصاد الحديث.

لقد حافظ أخوتنا العرب على تقليد إسناد الرئاسة للسودانيين، وكانوا يشيدون باعتدال مزاجهم. ولعل هذا المزاج هو الذي هيأ للسياسة الخارجية السودانية أن تكون منذ استقلال السودان متحررة بلا تطرف، وأن تكون محل ترحيب العرب أجمعين،

وجسر الوفاق بينهم وبين أفريقيا السمراء.

ظل هذا التحرر المعتدل طابع سياسة السودان الخارجية منذ الاستقلال حتى دخل السودان في سياسة التطرف، فتطرف يميناً وانحاز إلى المعسكر الغربي، واتبع سياسة المحاور، فدخل المحور الثلاثي الناصري، ثم المحور الثنائي الساداتي، وفقد بسياسة التطرف والمحاورة دوره الطليعي وموقفه المرموق الذي انتزعه في السياسة العربية والسياسة الأفريقية منذ الاستقلال وهو دور تفرضه على السودان مصالحه وواقعه الجغرافي[1].

وانضممتُ أيضا للنادي الاشتراكي، وهو تنظيم فكره يسار حزب العمال البريطاني، ووقع اختياري رئيساً له، وكان نشاطنا منصباً على مخاطبة الإنجليز وغيرهم للوقوف إلى جانب قضايا تحرير الشعوب المستعمرة. وكان النادي يجد تأييداً من بعض العناصر العمالية، وكنا نتعاون مع مرشحي حزب العمال البريطاني في الانتخابات العامة، ومع مرشحيه في الانتخابات المحلية. وذات يوم خرجنا نبث دعاية حزب العمال في أحياء أكسفورد، وتأخرنا لأن الأسر التي زرناها دخلت معنا في نقاش. ونتيجة للتأخير فاتني جزء من حلقة دراسية يديرها المستر كوستن عميد كليتنا (سانت جون). والمستر كوستن مؤرخ معروف ومن غلاة المحافظين الذين يرون أن أحسن شيء حدث للعالم هو قيام الإمبراطورية البريطانية فيه.

سألني المستر كوستن عن سبب تأخيري فأخبرته، فهاج هياجاً وعاتبني على التدخل في شئون السياسة البريطانية. فقلت له نحن نتدخل سلمياً بالإقناع. ولكنكم تدخلتم في شئوننا بالنار والدم والحديد فأينا أفضل؟ فلم يجب، ولعله أدرك أنه عاتبني بحماس لا يتناسب ووقار العلماء.

والحقيقة أن من آداب المروءة البريطانية أن يكتم الشخص شعوره. بعض الناس يرمون الإنجليز بالنفاق، وهذا ليس صحيحاً، لأن مفاهيم تربوية ورثوها من عهد

(١) بالطبع تطرف السودان مرة أخرى في عهد «التسعينات» واحتضن كل الغاضبين على بلادهم في المؤتمر الشعبي العربي والإسلامي، وصار مادة لمجلس الأمن فصدرت ضده منذ ١٩٩٦م وحتى الآن عشرات القرارات تحت الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة أي باعتباره خطر على السلم والأمن الدوليين - المحررة

المتطهرين (PURITANS) تقضي أن يكتم الإنسان شعوره مهما كانت الظروف. وهذا التقليد جلب سخرية كثير من المفكرين، حتى أن برتراند رسل عرف الـ PURITAN (المتطهر) بأنه ذلك الشخص الذي يسهر ليله كله أرقاً لأن شخصا ما في مكان ما يقضي وقتاً ممتعاً!!

وذات يوم في عام ١٩٥٦ م دخلت على المستر كوستن ومعي طالبين آخرين لتلقي درس في التاريخ السياسي، وكان العدوان الثلاثي على مصر قد وقع منذ يومين، فلم يخف المستر كوستن شماتته، وكان يتوقع أن يسقط جمال عبد الناصر قريباً. وكنت غاضباً جداً على ما حدث وعلى رأيه، فقلت له هذا عدوان ومؤامرة، وإننا جميعا سوف نتطوع للقتال مع الجيش المصري والشعب المصري، وقلت له لولا أن حزب العمال البريطاني قد أدان العدوان الثلاثي وشجب دور حكومة المحافظين الغادر لخرجت من أكسفورد فوراً فالعمال بموقفهم الشريف أنقذوا سمعة بريطانيا في العالم الثالث. وقلت له إنني كتبت لجدي الإمام عبد الرحمن الذي أعرف مشاعره إلى جانب شعب مصر مقترحاً أن يتخلى عن ألقاب الشرف البريطانية ونواشينها استنكاراً لموقف بريطانيا. وقلت للمستر كوستن إننا سوف ننظم المظاهرات والاحتجاجات في أكسفورد وفي لندن مطالبين بطرد المستر إيدن، وكشف المؤامرة، وسحب قوات العدوان من مصر فوراً. فغضب المستر كوستن غضباً شديداً، وتحول الدرس إلى نقاش حاد، وقال إن عبد الناصر استهتر بمصالح بريطانيا في مصر وفي العالم العربي، وأنه ذَنَب لروسيا، وأن على بريطانيا أن تلقنه درساً لكيلا يستمر خطره على السلام العالمي.

واستمر النقاش حاداً جداً، ورغم أن المستر كوستن عميد كليتنا، فإنه لم يتخذ ضدي إجراءاً إدارياً كالرفد أو التجميد مثلاً.. فالإنجليز لا يحبون التصرف بانفعال.

كان النادي الثالث الذي انضممت إليه هو جمعية آسيا وأفريقيا وجزر الهند الغربية. وكان هذا النادي يمثل بداية الشعور الذي نما حتى صار اليوم يمثل كتلة الجنوب الفقير الذي فاته الشمال الغني في توفير أسباب الحياة حتى أن سكان الجنوب وهم ثلاثة أرباع سكان العالم ينالون خمس الدخل العالمي بينما ينال سكان الشمال الغني وهم ربع سكان العالم أربعة أخماس الدخل العالمي!!

اختارني هذا النادي رئيساً، واختار ستيوارت هول أميناً عاماً، وكانت سياستنا أن

ندعو الساسة البريطانيين المعروفين بتأييدهم لقضايا التحرر في العالم الثالث لإلقاء المحاضرات. وكنا ننتهز فرصة زيارة قادة العالم الثالث لبريطانيا لندعوهم لعقد ندوات ومحاضرات لتنوير طلبة أكسفورد بمشاكل بلدانهم.

وكان عدد الطلبة المسلمين في أكسفورد قليلاً، وكنا نفتقد منبراً إسلامياً لجمع كلمتنا وتنظيم نشاطنا الإسلامي، ففكرت وجماعة من الزملاء الباكستانيين أمثال قيصر مرشد، وكمال حسين، وصديق إنجليزي مسلم ربرت بلك، وغيرهم أن نعثر على صيغة تنظم نشاط المسلمين، وبدأنا بالإفطار في رمضان مع بعض وبالا جتماع لصلاة العيد في قاعة أحد المطاعم الهندية. وفي عام ١٩٥٦ م قمنا بتكوين جمعية الاتحاد الإسلامي، فرفعنا راية الإسلام لأول مرة في أكسفورد، واستمر اتحادنا نشطاً حتى تخرجنا ثم مات بعدنا.

وعندما زرت أكسفورد قبل أسبوعين (عام ١٩٨٣ م) أخبرني بعض الطلبة المسلمين أنهم كونوا جمعية إسلامية جديدة.. والطريف أن مدير البنك الذي أودعنا فيه أموال الاتحاد الإسلامي القديم كتب لرئيس الجمعية الجديدة وقال له إن للاتحاد الإسلامي رصيداً عنده وأن الجمعية الجديدة أولى الناس به.

وبعد تكوين الاتحاد الإسلامي كتبت لجدي الإمام عبد الرحمن أبشره به، وأستفتيه في بعض القضايا التي يواجهها المسلمون في ظروف مخالفة لبلاد التشريع. فرد علي مهنئاً ومشجعاً ومبيناً الجواب على الأسئلة التي استفتيته فيها، وعرضت رده على أعضاء الجمعية فسروا به سروراً كبيراً، وقبلوا الاسترشاد بفتواه.

إن النشاط السياسي والفكري في أكسفورد يتيح للطالب فرصاً لا تقدر بثمن، فأعلام المفكرين، وأعلام الساسة العالميين يمرون بأكسفورد يحاضرون ويناظرون ويجيبون على الأسئلة.

والحرية الفكرية والسياسية تفتح الذهن لكل التيارات، وتتيح للشخص فرصاً لا تقدر بثمن للإطلاع على الفكر الحديث والإعلام بالتيارات السياسية.

ولا أعتقد أن أكسفورد استطاعت أن تحافظ على هذه الصفات فإن فرصها مقترنة بمكانة بريطانيا في العالم وهي مكانة تآكلت كثيراً بعد الحرب العظمى الأخيرة حقبة بعد حقبة.

موقف طريف

ذكر السيد الصادق موقفاً طريفاً حدث بين السيدين إسماعيل الأزهري وعبد الفتاح المغربي أثناء دراسته في بريطانيا[1]:

كنتُ في اللجنة التنفيذية لاتحاد الطلبة السودانيين في بريطانيا في عام ١٩٥٥ م، وزارنا المرحوم السيد إسماعيل الأزهري، وكان رئيساً للوزراء، وأعددنا له احتفالاً واجتماعاً ليخاطبنا، وكنا نريد أن نضغط عليه ليتوجه نحو الاستقلال، وتضمن خطابنا الموجه إليه هذا المعني، وقلنا له ضمن معان أخرى إننا عندما هممنا بتزيين المكان لاستقباله سألتنا المشرفة عن المكان أليس لديكم علم لنزين به القاعة؟ فخاطبنا بعبارات لائقة وأصدر أول كلام صريح بالتوجه نحو الاستقلال قائلاً: سيكون للسودان سيادته وعلمه وعملته!

لم يكن هذا الرأي متفقاً عليه في صفوف حزبه، بل حتى أعضاء وفده كان لهم رأي آخر عبر عنه المرحوم الشيخ علي عبد الرحمن متحدثاً عما سماه الاستقلال الاتحادي.

لقد كان اللقاء حياً وصاخباً، وبعد أن استمعنا له فتح باب الأسئلة، وتقدمت السيدة حواء البصير[2] رائدة التمريض في السودان بسؤال، قالت: بنات الأسر الكبيرة في السودان يعرضن عن التمريض وهو مهنة ضرورية، فهلا شجع الرئيس أزهري أفراد أسرته للدخول في التمريض وحث الأسر الأخرى على ذلك؟ وأجاب السيد عبد الفتاح المغربي -الملحق الثقافي آنذاك- بتعليق قائلاً: إن إعراض بنات الأسر الكبيرة عن التمريض جزء من التخلف الاجتماعي، سوف يزول الإعراض عندما يزول التخلف الاجتماعي، فأنا مثلا -والحديث للمغربي- زوجتي الإنجليزية كانت ممرضة وقد دخلت مجال التمريض مع أنها تلتقي في أحد جدودها بالعائلة المالكة البريطانية. وكان بين أزهري وعبد الفتاح مداعبات فهم أبناء دفعة واحدة، وكان عبد الفتاح كثير الفخر حتى أنه كتب ذات يوم مقالاً بعنوان: «لماذا لا أكون ملكاً؟» فأراد الأزهري أن يصب

(١) في كتابه الفكاهة ليست عبثاً

(٢) حواء علي البصير – خريجة المدرسة الأفريقية بالخرطوم بحري كما أرسلت في بعثات تدريبية للمملكة المتحدة في فترات مختلفة وعملت على تطوير فن التمريض والتوليد في البلاد- توفيت في ثمانينيات القرن العشرين.

ماءً بارداً على دعوى عبد الفتاح بأن زوجته تجتمع مع الأسرة المالكة البريطانية في أحد جدودها، لذلك عندما قال عبد الفتاح ما قاله بخصوص جد زوجته المذكور، قام أزهري وقال: بالمناسبة الجد المقصود اسمه آدم!

***

لقد وفق الصادق في النهاية في نيل شهادة جامعية بدرجة الشرف في الاقتصاد والسياسة والفلسفة.. ونال تلقائياً درجة الماجستير بعد عامين من تاريخ تخرجه. حسب النظام المعمول به في جامعة أكسفورد. وعاد للبلاد في عام ١٩٥٧م ومعه رصيد كبير من العمل العام مع بني جلدته من السودانيين وغيرهم من الأمم، والآمال في أن يواصل دراسته للزراعة في كاليفورنيا.

كان شاباً دون الثانية والعشرين من عمره، شغوفاً بالاطلاع، فاتح الذهن لكل ما حوله، فقد تشرب بالثقافة العربية والإسلامية وشكلت وجدانه، وقرأ للشيوعية فطرح الإلحاد لدى بعض مفكريها وآمن بالاشتراكية وضرورتها في المجتمع، ونشط مع حزب العمال البريطاني منادياً معه بنهاية الاحتلال الذين يسمونه استعماراً لبلداننا، وعمل مع اتحاد الطلبة السودانيين بما غرس في ذهنه أهمية العمل القومي تجاوزاً للحزازات والحزز الحزبية، وداخل جامعته عمل مع الجمعية العربية، والنادي الاشتراكي، وجمعية آسيا وأفريقيا وجزر الهند الغربية، وأنشأ مع زملاء آخرين الاتحاد الإسلامي، وهي نشاطات وسعت إدراكه بالعالم، فظل دائماً يتجاوز حالة الانكفاء والمحلية الموغلة لدى كثير من زعمائنا.

ومع نهاية هذه الفترة نجد أن شخصية هذا الشاب قد تكونت بشكل واضح لا لبس فيه، وقد بصم بصماته الواضحة فيمن حوله، وسوف يمتد ذلك الأثر للبلاد مثلما سوف تكشف الصفحات التالية.